الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر
للعلوم الإسلامية
قسنطنة

كليـــة: أصول الدين
قســـم: العقيدة ومقارنة الأديان
تخصص: فلسفة إسلامية

رقـــم التسجـــيل: .....

الرقم التسلسلي: .....

# الممارسة التحقيقية عند عبد القادر الجيلاني

مذكرة لنيل درجة الماجستير في الفلسفة الإسلامية

من إعداد الطالبة:
سعاد علالقة

إشراف الأستاذ الدكتور:
عبد الوهاب فرحات

## لجنة المناقشـــــــة

| الاسم واللقب | الرتبة العلميّة | الجامعة الأصليّة | الصّفة |
|---|---|---|---|
| أ.د.سعيد عليوان | أستاذ التعليم العالي | جامعة الأمير عبد القادر-قسنطينة | رئيسا |
| أ.د.عبد الوهاب فرحات | أستاذ التعليم العالي | جامعة الأمير عبد القادر-قسنطينة | مشرفا |
| أ.د.صالح نعمان | أستاذ التعليم العالي | جامعة الأمير عبد القادر-قسنطينة | عضوا |
| د.م.الشريف طوطاو | أستاذ محاضر- أ | جامعة خنشلة | عضوا |

السنـــــة الـــجامعية: 1433-1434هـــ/2012-2013م

# المقدمة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

**تمهيد:**

يمتلك العبد أهلية محبة الله له بعد أن يكون قد تلبس بالعمل الشرعي تلبسا عمليا مستمرا، يجعله يتحقق بمعاني العقيدة في واقعه، وهذا ما تضمنته الآية في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [1] كذلك إذا تأملنا قوله تعالى: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ [2]. نجد أن هناك مرحلتان يمر بهم الاعتقاد: الأول مرحلة العقل والمنطق، ثم مرحلة القلب والشعور، أو كما يسميه الصوفية الذوق، عقيدة، هو الذي يضفي الحياة على العقيدة النظرية فتصبح حية تسعى، تؤتي أكلها كل حين، فلكي يستقر الإيمان في القلب ويصبح ذوقا، هناك أولا عمل شرعي يزاول ويمارس حتى تنعكس آثار أعمال الجوارح على الوجدان، فتخالطه فيتحول صاحبها من حال حال.

وللاختلاف الموجود بين التقبل العقلي للعقيدة والمعايشة القلبية لمعانيها، أردت في بحثي هذا أن أتعرف على كيفية الانتقال من المرحلة العقلانية إلى المرحلة الشعورية، وكيفية السير في المرحلة القلبية التي تتسم بالدقة، حتى يصح للعبد التحقق بمعاني الإسلام قلبا وقالبا، كل ذلك عن طريق شخصية نموذجية، عرفت بالاستقامة والسمو الروحي والربانية الكاملة ألا وهي شخصية عبد القادر الجيلاني.

وسنتعرف على هذه الشخصية الربانية في ترجمة له في الفصل الأول.

**أهمية الموضوع:**

التجربة الإيمانية الحية –وهي المعايشة العقلية والقلبية والعملية لمعاني الإيمان– هي التي تؤسس للتغيير على مستوى الفرد والجماعات، و يمتلك المتذوق القدرة على الاستمرار لما لديه من الهمة العالية التي تؤهله ليكون شاهدا على حضارته.

ويعد البعد العملي حجر الأساس في عملية بناء جسر التواصل بين الحقيقة والشريعة، وما التحقق إلا امتداد للممارسة ونتيجة حتمية لها.

---

[1] – سورة أل عمران، الآية 31.

[2] – سورة الحجرات، الآية14.

**الإشكالية:**

كثيرا ماكنت أتأمل أسباب فتور السير على طريق التدين والتقهقر الواضح في الصحوة الإسلامية، ووجود انقطاعات وحلقات مفقودة في سلسلة التربية الإيمانية، خاصة في الأسر المتدينة، وكثيرا ما كان يبدو لي أن الأمر يشبه إلى حد ما متاهة في طريق التجربة الإيمانية المعاصرة، وانتهيت إلى أن احصر الإشكالية في مسألتي: التخلق والتحقق، لأطرح من خلال ذلك التساؤلات التالية: ماهي الممارسة المُوصلة والشرعية التي توصل إلى التحقق؟ وهل يمكن للسالك – في واقعنا اليوم – من بلوغ درجة: أن تعبد الله كأنك تراه، أم أن ذلك حصري على العهود السابقة؟ وهل التحقق أمر واجب وحتمي أم يمكن الاكتفاء بالتخلق؟ أو بمعنى آخر: ما حقيقة العلاقة بين التحقق والتوحيد؟ هذا ما سنجيب عنه في هذا البحث بإتخاذ شخصية عبد القادرالجيلاني نموذجا لمعالجة هذه الإشكالية.

**أسباب إختيار الموضوع:**

هناك سببين لإختيار الموضوع أحدهما ذاتي والثاني موضوعي:

**السبب الذاتي:** ميولي الشخصية ورغبتي في معرفة الطريق إلى التحقق بمعاني التوحيد، لأن تجربتي الشخصية إنتابها كثير من التعثر والتراجع، فعزمت البحث في الموضوع من أجل معرفة سبيل التحقق والإحاطة بالموضوع إحاطة علمية دقيقة أنتفع بها لنفسي ولغيري.

كذلك لي طرفة أحببت ذكرها هنا، وهي: لما كنت في سن السادسة عشر،كنت مولعة بالذوق العقدي والسلوكي، وحينها لا أملك من الكتب في هذا المجال إلا كتاب فتوح الغيب للشيخ عبد القادر الجيلاني، أقرأ منه وأتأثر فأطبق الكثير مما يقوله، وكنت معجبة به أشد الإعجاب، وأتتلمذ عليه بحرص شديد، ثم بعدها بفترة انقطع عني الكتاب، ولم تنقطع عني تلك المفاهيم التي غرسها في، وبعدها بعشر سنوات أنجبت طفلا اخترت له اسما هوكنية الشيخ الجيلاني المشهورة وهي: " محي الدين"،أملا وتفاؤلا .ونسيت الأمر بعدها إلى أن وقع الكتاب في يدي بعد أربعة عشرة عاما أثناء عودتي إلى الدراسات العليا واختياري لموضوع رسالتي دون أن أنتبه إلى أن الشخصية النموذجية في بحثي هي نفسها تلك الشخصية التي عرفتها من قبل باسم الشيخ محي الدين فقط دون التركيز على اسم عبد القادر الجيلاني، حتى قرأت كتاب فتوح الغيب وتأكدت من أنه هو نفسه، حينها فقط تأكدت أنني مريدة للشيخ الجيلاني، وكل هذا بالتوفيق من الله

تعالى.

**السبب الموضوعي:** موضوع الوصل بين الحقيقة والشريعة وإنزال العقيدة إلى واقع المعايشة، يستحق جهودا من البحث لجمع شتاته، كما أن التركيز على البعد العملي في التجربة الإيمانية الحية يفتح آفاقا في إمكانية ولوج عوالم التحقق وكيفية التدرج في سلّمه، مما يؤدي إلى التفهم السريع لمشاكل الفتور على طريق التدين والتلبس المزيف بتعاليم الشريعة.

**أهداف البحث:**

الهدف من هذا البحث هو إثبات:

– إمكانية التحقق لدرجة الإحسان ودي وأن ذلك ليس حكرا على جيل دون آخر.

– أن الفكر الديني المتكامل والمتجدد هو نتيجة تفاعل جانب التجربة الإيمانية الحية مع الجانب العلمي النظري، والذي يبدو بارزا في مظهر الرسوخ.

– أن التحقق مطلب شرعي موجه للجميع ولكل حظه حسب استعداده، والتوحيد لن يؤتي ثماره إلا إذا تحول إلى ذوق.

– أن إشادة القرآن والسنة بالعمل الشرعي، إشارة إلى إقامة كبير وزن للتجربة الإيمانية.

**الدراسات السابقة:**

قد ازدهرت كتب التصوف والتزكية بمواضيع التخلق والتحقق ومنها تزودت لبحثي.

أما دراسة الموضوع من حيث أهمية الممارسة ودورها في بلوغ درجة الإحسان، فقد تناولها "طه عبد الرحمان"في كتابه العمل الديني وتجديد العقل.

أما دراسة موضوع أهمية البعد العملي عند الشيخ الجيلاني، وربط ذلك بالتحقق فلم أعثر على دراسة سابقة له.

هناك دراسة أكاديمية اطلعت عليها حول شخصية عبد القادر الجيلاني، تدور حول فكره العقدي، وهي رسالة دكتوراه، لصاحبها الشيخ سعيد بن مسفر القحطاني بعنوان: "الشيخ عبد القادر الجيلاني وآراؤه الإعتقادية والصوفية عرض ونقد على ضوء أهل السنة والجماعة ". وهي كما تبدو من عنوانها، تلقي الضوء على مدى تسلف عقيدة الشيخ وأرائه الصوفية، ولا تنحى منحى آخر كالذي أصبو إليه في البحث.

**منهج البحث:**

اعتمدت في هذا البحث المنهج التحليلي والمنهج الوصفي والمنهج التاريخي.

استعملت المنهج التاريخي في ترجمة الشيخ الجيلاني، ثم المنهج الوصفي لتناسبه مع طبيعة مضمون الفصلين الأول والثاني، من حيث عرض للمفاهيم الأساسية وسبر أغوار جزئيات البحث والتعرف على طبيعتها ونوعية العلاقة بين متغيراتها .

اما المنهج التحليلي فقد استعملته عند الحاجة لفك جزئية من البحث وتحليلها والغوص فيها ليتضح المقصود الصحيح منها، وكم في هذا البحث من معاني وجزئيات تحتاج إلى تفكيك وتحليل لإزالة غموضها وإجلائها للأفهام.

وكل مبحث يتكون غالبا من تعريف لعنوانه لغة واصطلاحا، وفي هذا الأخير أذكر آراء مشاهير الصوفية في تلك الجزئية، ثم أنتقل إلى عنوان مستقل لعرض رأي الشيخ الجيلاني في نفس الجزئية مع التحليل والتوضيح والتعليق عليها، ثم أختم المبحث بخلاصة الفكرة المعالجة وتمهيد للتي بعدها. ونفس العمل مع المطالب.

وقد انتهجت في توثيق المراجع الطريقة التالية:

بالنسبة للكتب:

فقد ذكرت اسم الكاتب والكتاب ودار النشر والبلد ورقم الطبعة إن وجدت، فإن لم توجد رمزت لها بالرمز (دط)، وتاريخ الطبع كذلك إن وجد، فإن لم يوجد رمزت له بالرمز (دت)، بعدها أذكر الجزء واسمه إن كان لكل جزء اسمه ثم رقم الصفحة.

وعند ذكر الكتاب مرة أخرى في نفس الصفحة، فإن كان بينهما فاصل أكتفي بذكر المؤلف وأشير إلى الكتاب بالمرجع أو المصدر السابق والجزء والرقم والصفحة، فإن لم يكن بينهما فاصل أكتفي بذكر المرجع نفسه ورقم الجزء والصفحة، أما إن لم يكن في نفس الصفحة فإنني أذكر اسم المؤلف والكتاب والجزء و الصفحة.

أما بالنسبة لتخريج الأحاديث:

فإنني أذكر اسم المصنِف و المصنَف ودار النشر والبلد ورقم الطبعة إن وجدت، فإن لم توجد رمزت لها بالرمز (دط)، وكذلك تاريخ الطبع إن وجد، فإن لم يوجد رمزت له بالرمز (دت)، بعدها أذكر الجزء ثم الكتاب ثم الباب ثم رقم الحديث ثم الصفحة.

أما بالنسبة للأعلام لم أقم بالترجمة لهم، وهذا لكثرتهم من جهة ولشهرة معظمهم من جهة أخرى.

أما بالنسبة للرسائل الجامعية:

أذكر اسم الكاتب وعنوان الرسالة واسم الأستاذ المشرف والجامعة والبلد والتاريخ.

**خطة البحث:**

وهي متمثلة في:

مقدمة:

وقد حاولت تضمينها العناصر المنهجية الضرورية، وهي التعريف بالموضوع وعرض الإشكالية والأهمية ودوافع الاختيار والدراسات السابقة ومنهج البحث والصعوبات والخطة.

وفصل تمهيدي ذكرت فيه ترجمة الشيخ الجيلاني من خلال ذكر جوانب مهمة كالجانب السياسي والثقافي والديني،كذلك حياته مرورا بنسبه ومولده ونشأته ورحلاته ومشايخه وتلاميذه ومكانته العلمية، ثم أخلاقه وصفاته وطريقته ثم وفاته ومؤلفاته.

في هذا الفصل التمهيدي ،رغم توفر المراجع إلا أنها تبدو كأنها منسوخة من نفس المصدر الأصلي الأول، فنادرا ما أجد إضافة في أحدهم أستفيد منها في بحثي، فاكتفيت بما هو موجود ومكرر في معظم المراجع.

ثم الفصل الثاني ويتضمن مرحلة التخلق عند الشيخ الجيلاني، وهي المتمثلة في جزئية الممارسة، وينقسم إلى مبحثين: الأول حول المعرفة، والثاني حول منهج الجيلاني في التخلق.

وفي الفصل الثالث الذي يتضمن مرحلة التحقق عند الشيخ الجيلاني، حيث ذكرت في المبحث الأول الفناء وأهم مظاهره. وفي المبحث الثاني ذكرت البقاء وأهم مظاهره.

وختمت بخاتمة ضمنتها أهم النتائج التي توصلت إليها.

ونظرا لتكرار نفس الأفكار في مجالس ومقالات الشيخ الجيلاني الوعظية، لم أتمكن من عرض نماذج كثيرة له في بعض جزئيات البحث، وتجنبت التكرار على قدر المستطاع، فقد كانت مجالس شفاهية يكتبها تلامذته، تدور حول محور أساسي دوما وهو التوحيد الذوقي، حتى أنني في أحيانا كثيرة لا أهتم بعنوان المقال أو المجلس، بل أفتح الكتاب على أي صفحة لأجد النموذج المطلوب.

**صعوبات البحث:**

أهم ما اعترضني من صعوبات، هو عدم توفر كتابات متعددة ومتنوعة للشيخ متخصصة في التصوف، وكل ما تحصلت عليه هو كتابين، أحدهما بعنوان: الفتح الرباني والفيض الرحماني، لم يقم بتأليفه، بل من عمل تلامذته، حيث قاموا بتدوين ما كان يلقيه في مجالسه شفاهة، فكانت متعبة لأنها مجالس وعظ شفاهية مقدمة لعامة الناس، وفيها تكرار كثير لنفس الأفكار، كما أنها تفتقر للفواصل والتنقيط الصحيح لفصل فكرة عن أخرى، واستعمل فيها العامية وبعض المصطلحات غير المعروفة، وكان هذا الكتاب هو عمدتي في البحث.كما استعنت بالكتاب الثاني وهو عبارة عن مقالات قصيرة لأفكار متناثرة، يبدو أنه كتبها في مراحل متقدمة من عمره، لأنها تصب معظمها في معنى فناء الإرادة ومفهوم الفناء والبقاء عموما، إلا أن المقالات في هذا الكتاب لاتختلف عن بعضها من حيث المضمون.

هذا ما أمكنني توضيحه في هذه المقدمة، أسأل الله أن تحظى الرسالة بالاستحسان والقبول.

وأخيرا أتوجه بالشكر الجزيل لكل من أعانني في هذا العمل، وإلى اللجنة الموقرة التي يتحمّل كل أستاذ فيها عناء قراءة الرسالة وتقويمها، أدامهم الله جميعا لخدمة العلم وجزاهم عن ذلك خير الجزاء.

# الفصل التمهيدي:

# عصر الشيخ عبد القادر الجيلاني وحياته

المبحث الأول: عصره

المبحث الثاني :حياته

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

## المبحث الأول: عصر الشيخ عبد القادر الجيلاني:

إن الاطلاع على الظروف المعاصرة لحياة الشيخ الجيلاني، يمكّن الدارس من فهم توجهّاته الفكرية والروحية، ويعطي تفاسير واضحة لبعض السلوكيات التي كان ينتهجها في خطابه ومجالسه وحتى أسلوب كتاباته والتي تتسم بالخشونة والترهيب والتقريع في غالب الأحيان .

بعد التعرف على الجوانب الرئيسية الثلاث في عصره، وهي الجانب السياسي والثقافي والديني، نجد انه اختار انسب الاساليب الدعوية في ذلك الوقت، وفعلا اتى ذلك بنتائج باهرة من حيث قوة تأثيره في نفوس العامة والخاصة وانتشار دعوته انتشارا واسعا داخل البلاد وخارجها .

ولنبدأ بعرض نبذة عن عصره مقتصرين في ذلك على الجانب السياسي والثقافي والديني .

**الجانب السياسي:**

لقد انفق الشيخ الجيلاني زهاء سبعين سنة من عمره في مدينة السلام ببغداد. شهد خلالها حكم خمسة من خلفاء بني العباس وهم: المستظهر بأمر الله أبو العباس أحمد بن عبد الله، المسترشد بالله أبو منصور الفضل بن أحمد بن عبد الله، الراشد بالله أبو جعفر المنصور بن أحمد بن عبد الله، المقتفي بأمر الله محمد بن أحمد بن عبد الله، المستنجد بالله أبو المظفر يوسف بن محمد بن المستظهر.

ولقد كانت تلك المرحلة في حياة الدولة العباسية مليئة بالحوادث الخطيرة حيث كان الصراع عنيفا بين الخلفاء العباسيين وبين سلاطين آل سلجوق اللذين كانوا يطمحون إلى بسط نفوذهم وسيطرتهم على الدولة العباسية، فتارة يصلون إلى أهدافهم بالموافقة وتارة أخرى بالكراهية والغصب[1].

وكثيرا ما كانت تنشب المعارك الحربية بين الطرفين ويقتتل المسلمون على الملك والجاه والمال، لا سيما في عهد المسترشد الذي انتصر في أغلب المعارك لكنه انهزم أمام جيش السلطان مسعود في العاشر من رمضان سنة 519هـ، وأُسر الخليفة ونُهبت أموال البغداديين ومحاصيلهم وانتقلت الأخبار(2) بذلك إلى الأقاليم، فثـار الناس ناقمين على السلطان مسعود الذي ما لبث أن أخلى سبيل الخليفة، بيد أن الباطنية اغتالوه في طريق عودته إلى بغداد[2].

---

[1]- محمد عبد الرحيم –العارف بالله عبد القادر الجيلاني، دار الفكر- بيروت-ط1- 1996م- ص 44.

[2]-المرجع نفسه، ص 45و46.

شهد عصر الشيخ أيضا الحروب الصليبية. حيث برزت عوامل مختلفة في تغليب كفة الانتصار للقائد صلاح الدين الأيوبي سواء منها ماكان على مستوى الخلافة، ومنها ما هو على المستوى الشعبي ومنها ما هو على مستوى الوزارة. فقد أخذت مؤسسة الخلافة تسترجع صلاحياتها وتقوى على ما كانت عليه في العهد السلجوقي الأول، وكذلك الوزارة العباسية في عهد يحي بن هبيرة الوزير الصالح والعالم الرباني[1].

هذه هي جملة ظروف الحياة السياسية التي عاش فيها الشيخ الجيلاني وعانى آلامها وشغلته همومها.

**الجانب الثقافي والديني:**

اتسم القرن الخامس والسادس في تاريخ الإسلام بغزارة في العلم وتقدم في الآداب، وقد نبغ فيهما علماء كبار ومؤلفون بارعون[2].

وكانت بغداد في عصر الشيخ الجيلاني عاصمة الثقافة الإسلامية، فكانت مجمعا للعلماء والفلاسفة، ومركزا للفقهاء والمفسرين والمحدثين، ومنتدى للشعراء والكتاب، وأصحاب التراجم والسير والتاريخ ومحرابا للزهاد الصوفية، فلا عجب أن تكون محطة أنظار جميع المستنيرين طلبا للمعرفة واليقين، وممارسة التجربة الروحية تحت أنظار مشايخها المشهورين[3].

**الجانب الديني:**

ولما كانت بغداد عاصمة الثقافة الإسلامية كانت أيضا عاصمة الإمبراطورية العباسية، وقد تعلقت بها قلوب الناس من كل أنحاء البلاد الإسلامية[4].

وأصبح قصر الخليفة وقصور الوزراء محط الرحال، معتقدين أن أمراء الدولة وعمالها يملكون أرزاق الناس وحظوظهم ونفوسهم، فتسابقوا إلى إرضائهم وتملقهم لدرجة أن تعلق الناس بالأسباب والوسائط التي أصبحت أربابا من دون الله، فنشأت وثنية في عاصمة الإسلام[5].

وفي المقابل قل من يعتكف في المدارس وينقطع إليها ليدرس العلوم الدينية ويتعمق فيها، كما أصبحت المدارس النظامية قاصرة على التربية والإصلاح، بل حتى الصلة بين المثقفين الكبار وبين الناس منحصرة في

---

[1]- محمد علي الصلابي ،العالم الكبير والمربي الشهير الشيخ عبد القادر الجيلاني، مؤسسة إقرأ القاهرة، ط1 ،2007م، ص 5.

[2]- أبو الحسن علي الندوي ،رجال الفكر والدعوة في الإسلام، دار القلم، دمشق، ط1، 2002م، ج1، ص 321.

[3]- محمد عبد الرحيم، العارف بالله عبد القادر الجيلاني، ص 42و44.

[4]- أبو الحسن علي الندوي، المرجع السابق، ص 331.

[5]-المرجع نفسه، ص 333.

صلة علمية عقلية لا تخضع لها القلوب ولا تُصنع بها حياة، ولذلك لا يتقيد بها الناس ولا يرتبطون بها ارتباطا روحيا[1].

كما أن التصوف في القرن الخامس قد اتجه اتجاه الانحراف على الشريعة[2]، ومنه شاعت شطحات الصوفية والدعاوي إلى إسقاط التكاليف الشرعية، كما ظهرت نزعة وحدة الوجود[3].

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[1]-ابو الحسن علي الندوي ،رجال الفكر والدعوة في الإسلام ، ص 348.

[2]-المرجع نفسه، ص 328.

[3]-المرجع نفسه، ص 329.

## المبحث الثاني: حياة الشيخ عبد القادر الجيلاني:

### نسبه ومولده ونشأته وأسرته:

هو عبد القادر بن موسى بن عبد الله بن يحي الزاهد بن محمد بن داود بن موسى بن عبد الله موسى الجون بن عبد الله المحض بن حسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب [1]رضي الله عنه، فهو حسَني من جهة الأب[2] اما امه الكريمة فهي ام الخير أمة الجبار فاطمة بنت السيد عبد الله الصومعي الزاهد بن الإمام أبي جمال الدين السيد محمد بن الإمام السيد محمود بن الإمام أبي العطاء عبد الله بن الإمام كمال الدين عيسى بن الإمام السيد أبي علاء الدين محمد الجواد بن علي الرضا بن الإمام موسى الكاظم بن الإمام جعفر الصادق بن محمد الباقر بن الإمام علي زين العابدين بن الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه[3]، فهو حسيني من جهة الأم[4].

اضافة إلى هذا النسب الشريف المتصل بحفيدي الرسول ﷺ فله اتصال كذلك عن طريق بعض جداته لكل من أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضي الله عنهم[5].

ولد الشيخ سنة 471هـ ، ولد بنيف وهي مدينة صغيرة في جيلان، و جيلان هي المنطقة الواقعة بين بحر قزوين والجبال الوعرة التي تحد إقليم طابرستان في بلاد فارس (مازندران الحالية)، تحمل اسم كيلان، وهذا السهل الطويل الضيق مليئ بالشلالات اللطيفة، وسط نباتات دائمة الخضرة متدفقة الخصوبة. وينطق العرب بكيلان مثل جيلان، يحد إقليم شمالا بحر قزوين وشرقا مازندران وجنوبا قزوين وأذربيجان[6].

ولقد نشأ نشأة صالحة في العلم والخير والصلاح، في كنف عائلة كان فيها والده رحمه الله صالحا زاهدا تمسك بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، كما كان جده لأمه السيد عبد الله الصومعي زاهدا تقيا ورعا، حتى أن الشيخ عبد القادر الجيلاني كان يعرف به في بلدته وهو صغير، فهيأته

---

[1]- يونس الشيخ إبراهيم السمرائي ،الشيخ عبد القادر الكيلاني حياته آثاره ، مطبعة الأمة، بغداد، ط2، دت، ص 6.

[2]- محمد عبد الرحيم ، العارف بالله عبد القادر الجيلاني، ص 44.

[3]- يونس الشيخ إبراهيم السمرائي ، المرجع السابق، ص 6.

[4]- محمد عبد الرحيم ، المرجع السابق، ص 36.

[5]-محمد موهوب بن الحسين، وصايا وأدعية الشيخ عبد القادر الجيلاني، دار الهدى عين مليلة، دت، ص 8و9.

[6]-محمد موهوب بن الحسين، وصايا وأدعية الشيخ عبد القادر الجيلاني ، ص 41-42.

هذه الظروف لأن يأخذ العلم في بداياته عن أفراد أسرته وأن يحفظ القرآن الكريم ويتقنه[1].

أما عن زواجه فلم تذكر تراجم بمن تزوج (لا الاسم ولا النسب) ولا غيرها.

انجب منهن عدة أولاد ذكرتهم الكتب القديمة، وما كانوا عليه من علم وفضل وزهد وورع، حيث ساروا على نهج أبيهم وهم:

– الشيخ عبد الرزاق: ومن أحفاده الأسرة الكيلانية في حماه ودمشق وفلسطين والأردن، وقد تفقه على والده وحدث وأفتى وناظر، وتوفي ببغداد سنة 603هـ.

– الشيخ أبو بكر عبد العزيز: تفقه على والده وسمع منه، توفي سنة 604هـ. ونقباء بغداد الحاليين من ذريته.

– الشيخ إبراهيم: تفقه على والده وسمع منه ومن سعيد بن البناء، ورحل إلى واسط، وتوفي بها سنة 592هـ.

– الشيخ محمد: كان رجلا فاضلا وتفقه على والده ، وتوفي سنة 600هـ ودفن بمقبرة الحلية.

– الشيخ عبد الجبار: تفقه على والده، وسمع من أبي المنصور والقزاز وغيرهما، توفي سنة 575هـ.

– الشيخ عبد الرحمن: المتوفي سنة 587هـ.

– الشيخ عبد الوهاب: تفقه على والده، سمع من أبي غالب بن البناء، ودرس بمدرسة والده، وتوفي سنة 593هـ، ودفن في جوار والده.

– الشيخ عبد الله: سمع من أبيه وأفتى ودرس. توفي سنة 589هـ[2].

---

[1]–محمد موهوب بن الحسين، وصايا وأدعية الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص 80.

[2]–المرجع نفسه، ص22.

- الشيخ عيسى: سمع من والده، وحدث ووعظ، توفي سنة 573هـ بقرافة مصر، ودفن بها.

- الشيخ يحي: تفقه على والده، وحدث وتنفع الناس به، توفي سنة 600هـ، ودفن عند أخيه الشيخ عبد الوهاب برباط والده بالحلبة.

- الشيخ موسى: تفقه على والده، وحدث بدمشق، وتوفي بالشام سنة 618هـ.

وقد انجب هؤلاء أبناءا وأحفادا كوّنوا ما يعرف في بغداد بالأسرة الكيلانية التي تعتبر من أرفع الأسر العراقية قديما وحديثا، برز منها رجال في ميادين العلم والأدب[1].

**رحلاته ومشايخه وتلاميذه ومكانته العلمية:**

ظل الشيخ عبد القادر في بلدته جيلان ثمانية عشرة سنة، وتلقى خلال هذه الفترة بعض مبادئ العلوم الشرعية التي لم تشبع نهمه، ولم ترض طموحه بالاستزادة من العلم، فقصد بغداد سنة 488هـ.

وقد اتسمت سفرته بالصلاح وأمارات التقوى، وقد تحدث الشيخ عبد القادر عن سفره من جيلان إلى بغداد فقال: «جئت إلى أمي وأنا صغير، فقلت لها هبني لله عز وجل وأذني لي بالمسير إلى بغداد أشتغل بالعلم وأزور الصالحين فبكيت وأعطتني ثمانين دينارا قد خلفها أبي، فتركت لأخي أربعين دينارا وأخذت الأربعين الأخرى، وخاطتها أمي في ثوبي لحفظها من الضياع، وأذنت لي بالمسير، وقطعت علي عهدا أن أصدق في جميع الأحوال ولا أكذب أبدا، وخرجت مودعا فقالت ولدي اذهب فقد خرجت عنك لله تعالى، فهذا وجه لا أراه إلا يوم القيامة، وكأنها ألهمته عن ما سوف يقع في الغيب، فقد توفيت رضي الله عنها بعد سفر ولدها بعد بضع سنوات وهو يطلب العلم في بغداد، فلم تره .وقال الشيخ رضي الله عنه: وبعد ذلك سرت مع قافلة تطلب بغداد بينما نحن كذلك بطريقنا إذ خرج علينا ستون فارسا من الأودية، فأخذوا القافلة واجتاز بي أحدهم فقال يا فقير ما معك؟ فقلت أربعون دينارا، قال أين هي؟ قلت مخاطة في ثوبي تحت إبطي فظنني أستهزئ به فتركني وانصرف ومر بي آخر فقال لي مثل ما قال الأول فأجبته كما أجبت الأول فتركني وانصرف حتى كنا عند كبيرهم فأخبراه بما سمعا مني فقال علي به فأتي به إليه وهم على تل يقتسمون أموال القافلة فقال لي ما معك قلت أربعون دينارا فقال ما

[1]- محمد موهوب بن الحسين، وصايا وأدعية الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص 22.

حملك على الاعتراف؟ قلت عاهدت أمي على الصدق وإني لا أخون عهدها، فبكى المقدم وقال أنت لم تخن عهد أمك وأنا لي كذا وكذا سنة أخون عهد ربي فتاب على يدي فقال أصحابه أنت كنت مقدمنا في قطع الطريق وأنت الآن مقدمنا في التوبة، فتابوا كلهم على يدي وردوا على القافلة ما أُخذ منها»[1].

وقد اقبل على طلب العلم بهمة عالية وحرص شديد، فكان يتعلم في اليوم ما يتعلمه أقرانه في الأسبوع، و لم يقنع بالقليل والسطحي منه بل تاقت نفسه إلى الاستزادة والتعمق دون أن يشغله ذلك عن الشغف بالعبادة والرياضة[2].

وقد اتقن العلوم السائدة في عصره على مشاهير مشايخ بغداد آنذاك فسمع الحديث من جماعة، منهم:

ابو غالب محمد الباقلاني –جعفر السراج –ابو بكر بن سوسن عبد الرحمن القزاز –علي الكرخي –هبة الله بن المبارك –ابو طالب بن يوسف وغيرهم[3].

وحصل علوم القرآن والأصول والفروع على مشايخ منهم:

علي بن عقيل الحنبلي –محفوظ الكلوداني الحنبلي –محمد بن القاضي –محمد بن الحسين بن الفراء الحنبلي وغيرهم.

وقرأ الأدب على يد يحي بن علي التبريزي وأخذ علوم التصوف على الشيخ حماد بن مسلم الدباس، ولبس خرقة التصوف من القاضي أبو سعيد المخرمي –الذي له سلسلة تصله بالشبلي فالجنيد فالسري السقطي فمعروف الكرخي فداود الطائي فحبيب العجمي فالحسن البصري.

ثم حبب إليه شيخه حماد الدباس المجاهدات والرياضات وكان هذا الشيخ قدوة لمشايخ بغداد فساح الشيخ عبد القادر في صحراء العراق ملازما الخلوة والمجاهدة متحملا المشاق من مخالفة النفس ومحاربة الهوى وملازمة الجوع والسهر والإقامة في الأماكن المنعزلة، مقبلا على الإنشغال بالعبادة وتلاوة الأذكار، ولا عجب في ذلك فقد كان أبواه من الزاهدين في الدنيا مع

---

[1]–محمد موهوب بن حسين، وصايا وأدعية الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص8 و 9.

[2]– محمد عبد الرحيم ،العارف بالله عبد القادر الجيلاني، ص 48.

[3]–المرجع نفسه، و نفس الصفحة.

القدرة عليها، فكانا من أهل الصلاح والديانة والشفق على الخلق[1].

وتتلمذ على يد الشيخ الجيلاني خلق لا يحصيهم إلا الله، وصلحت أحوالهم وحسن إسلامهم، وظل الشيخ يربيهم ويحاسبهم ويشرف عليهم وعلى تقدمهم، وأصبح هؤلاء التلاميذ الروحيين يشعرون بالمسؤولية بعد البيعة والتوبة[2]، وقد كان يجيز الشيخ الجيلاني الكثير منهم ممن يرى فيهم النبوغ والاستقامة والمقدرة على التربية[3]، وكان لهم ولمن سار سيرهم في الدعوة وتهذيب النفوس من أعلام الدعوة وأئمة التربية في القرون التي تلته، فضلا كبيرا في المحافظة على روح الإسلام وشعلة الإيمان وحماسة الدعوة والجهاد وقوة التمرد على الشهوات والسلطات، ولولاهم لابتلعت المادية التي كانت تسير في ركاب الحكومات والمدنيات هذه الأمة وانطفأت شرارة الحب والحياة في صدور أفرادها[4].

ومن هؤلاء التلاميذ: محمد السهروردي: «ذكر الشيخ محمد صادق الجيلاني في مناقبه الغوثية، أن الشيخ أبا الشهاب محمد بن عبد الله السهروردي كان لا ولد له فحضر خدمة الشيخ وطلب منه الدعاء ليرزقه الله تعالى ولدا، فدعا له ورزقه الله ولدا، ولما ولد أخذه وأحضره بحضور الشيخ، ودعا له بطول عمره وقال: سميناه بشهاب الدين عمر، سيكون له الرتبة العالية بين الأولياء إن شاء الله تعالى». وهذا يدل على صلة السهروردي بالشيخ عبد القادر وإشرافه عليه منذ كان طفلا[5].

وكما ذكر عنه أيضا في ترجمة بعض من شيوخه الذين التقى بهم وأخذ عنهم وأشار إليهم في عوارفه فشيخاه أبو نجيب السهروردي وعبد القادر الجيلاني ممثلان لشيوخه في التصوف[6].

ومن تلاميذه أيضا أبي سعيد السمعاني، وعمر بن علي القريشي ويحي بن سعد وعمر البراء، وابن قدامة المقدسي والشيخ عبد الغني المقدسي وغيرهم[7].

---

(1)-محمد عبد الرحيم، العارف بالله عبد القادر الجيلاني، ص 48و52.

(2)- أبو الحسن علي الندوي ،رجال الفكر والدعوة في الإسلام، ص 349-350.

(3)-المرجع نفسه، ص 350.

(4)-المرجع نفسه، ونفس الصفحة.

(5)- عائشة يوسف مناعي ،أبو حفص السهروردي حياته وتصوفه، دار الثقافة، الدوحة، ط1، 1991م، ص 54و55.

(6)- المرجع نفسه ، ص 37.

(7)- محمد موهوب بن حسين ، وصايا وأدعية الشيخ عبد القادر الجيلاني ، ص 13.

وقد منحت إلى الشيخ الجيلاني بعد تمكنه من العلم مدرسة بباب الأزج ببغداد، وتسمى الآن محلة باب الشيخ ليعلِم بها، فضاقت هذه المدرسة بالناس من ازدحامهم على مجلسه، وكان رضي الله عنه يتكلم في ثلاثة عشرة علما، فكانوا يقرئون عليه في مدرسته درسا من التفسير ودرسا من الحديث، ودرسا من المذاهب، وغيرها من الدروس، كما كان يقرأ القرآن بالقراءات ويفتي على مذهب الإمام الشافعي والإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنهما.

فازدحم الناس عليه من كل صوب فلم يسعهم مجلسه حتى جلس لهم في الفضاء من أرض واسعة، فمجلسه كان يضم ناسا كثيرين تجاوزت الآلاف، ذلك لأن حديث الشيخ الجيلاني كان يخترق قلوب سامعيه، فهو يتحدث من أعماق قلبه فيفهمه الناس باختلاف مداركهم، وكان يأتيه الخليفة أو الوزير أو من له الحرمة الدانية وهو جالس فيقوم ويدخل داره، فإذا جاء، خرج الشيخ من داره لئلا يقوم لهم إعزازا للطريق في أعين الفقراء، وإنه ليكلمهم الكلام الخشن ويبالغ لهم في العظة وهم يقبِلون يديه ويجلسون بين يديه متواضعين متصاغرين.

وكان يكتب إلى الخليفة فيقول له: عبد القادر يأمرك بكذا وأمره نافذ عليك وإطاعتك واجبة وهو لك قدوة وعليك حجة. فإذا وقف على ورقته قبلها وقال صدق الشيخ.

ولما ولي المقتضي لأمر الله أمير المؤمنين القاضي المشهور بابن المرخم الظالم، قال على المنبر وليت على المسلمين أظلم الظالمين، ما جوابك عند رب العالمين أرحم الأرحمين؟ فارتعد الخليفة من كلامه وبكى وعزل القاضي المذكور لوقته...[1]

وجمع الشيخ عبد القادر بين الدراسة العلمية والتربية الروحية وكان له فيها السبق، ومالت نفسه إلى إرشاد الخلق إلى الحق عز وجل، فسلمه شيخه أبو سعيد مدرسته في باب الأزج ببغداد. فقام الشيخ عبد القادر بالمهمة خير قيام ولقي قبولا منقطع النظير من جماهير بغداد وأقبل عليه الناس من كل مكان، وقام الفقراء بتوسيعها وتكملة بنائها سنة 528هـ، وانتهت إليه رئاسة العلم والتربية والإصلاح والإرشاد والدعوة إلى الله في العراق [2].

ولقب بمجمع الفريقين وموضح الطريقين (أهل الشريعة وأهل الحقيقة) وتلمذ له أكثر

---

[1]-محمد موهوب بن حسين ، وصايا وأدعية الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص 12و14.

[2]- محمد عبد الرحيم ، العارف بالله عبد القادر الجيلاني، ص 52و53.

الفقهاء في زمنه... وأكبر شيوخ اليوم وغيرها تنتسب إليه وكراماته تفوت الحصر والعد[1]. قال الشيخ موفق الدين: -وقد سئل عن الشيخ عبد القادر- أدركناه في آخر عمره فأسكننا مدرسته إلى أن قال و لم أسمع عن أحد يحكى عنه من الكرامات أكثر مما يحكى عنه ولا رأيت أحدا يعظمه الناس من أجل الدين أكثر منه[2].

**أخلاقه وصفته وطريقته ومناقبه:**

اشتهر الشيخ عبد القادر بحسن أخلاقه وعلو همته، وتواضعه لله تعالى وسخائه وكرمه وإيثاره. كان يجالس الفقراء ويؤاكلهم ويحنو عليهم وكان يحفظ الود ويتجاوز عن السيئات، ويتفقد من غاب من تلاميذه ويسأل عنهم.

ومن شدة تواضعه فإنه كان يقف للصغير وللجارية وذلك مع جلالة قدره وعلو مترلته، وبالمقابل فإنه لم يكن ليقف بباب وزير ولا سلطان طلبا لدين أو لسعي وراء جاه أو منفعة، وكان صداعا بالحق قويا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا يحابي في دين الله أحدا، ولا تمنعه منه وجاهة أو سلطان فينقد الخلفاء والأمراء والوزراء وعلماء البلاط الذين يؤولون أحكام الشريعة حتى تتناسب مع أهواء الخلفاء والأمراء[3].

ولقد قال فيه الإمام الحافظ أبو عبد الله الإشبيلي: «كان مستجاب الدعوة سريع الدمعة، ودائم الذكر كثير الفكر، رقيق القلب دائم البشر، كريم النفس، سخي اليد، غزير العلم شريف الأخلاق، طيب الأعراق، مع قدم راسخ في العبادة والاجتهاد».

وقال فيه أيضا مفتي العراق محي الدين محمد بن حامد البغدادي: «كان أبعد الناس عن الفحش، أقرب الناس إلى الحق، شديد البأس إذا انتهكت محارم الله عز وجل، لا يغضب لنفسه ولا ينتصر لغير ربه».

---

[1]- أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الكتب العلمية، بيروت، دت، مجلد2، ج4، ص 199.

[2]-المرجع نفسه، ص 200.

[3]-محمد عبد الرحيم، المرجع السابق، ص 66.

كان له حب كبير لإطعام الطعام والإنفاق على ذوي الحاجة والعاهة[1].

وقال العلامة النجار في تاريخه، قال الجبائي قال الشيخ عبد القادر: «فتشت الأعمال كلها فما وجدت فيها أفضل من إطعام الطعام ولا أشرف من الخلق الحسن، ولو كانت الدنيا بيدي أطعمتها الجائع، وقال لي: كفي مثقوبة لا تضبط شيئا، لو جاءني ألف دينار لم تبت عندي»[2].

انحصرت فلسفته في الحياة باعتقاده بأنه مكلف ومأمور بإرشاد الناس إلى طريق الحق والخير، ولقد حاول البعض الأخذ عليه بأنه عنيف في وعظه، وقاسي على مستمعيه، ويوبخهم ويؤنبهم دون أن يلجأ إلى الملاطفة واللين، والحقيقة أن طبيعة الواعظ أن لا يكون دائم اللين ولا دائم الغلظة، وإنما يعطي لكل مقام ما يلائمه ويستحقه.

فصحيح أنه كان شديد النكير على المخالفين وفي كلامه شيء من الخشونة والشدة، لكنه صريح العبارة واضح الصدق، والذي دفعه إلى هذا الأسلوب هو ألمه وتوجعه من انحراف الخلق وابتعادهم عن سبيل الرشد والصراط المستقيم، ويعتذر من المستمعين على هذه الخشونة وعلى تلك الشدة فيقول: «ما بيني وبينك عداوة غير أنني أقول الحق ولا أحابيك في دين الله عز وجل، قد تربيت على خشونة كلام المشايخ وخشونة الغربة والفقر، إذا ظهر مني إليك كلام فخذه من الله عز وجل فإنه هو الذي أنطقني»[3].

وقد قال الخضر الحسيني الموصلي عنه: «خدمت الشيخ سيدي محي الدين عبد القادر رضي الله عنه ثلاث عشرة سنة فما رأيته يتمخط ولا يتنخع، ولا قعدت عليه ذبابة ولا قام لأحد من العظماء ولا ألم ببابه سلطان، ولا جلس على بساطه ولا أكل من طعامه إلا مرة واحدة. وكان يرى الجلوس على بساط الملوك ومن يليهم من العقوبات المعجلة. وكان يأتيه الخليفة أو الوزير أو من له الحرمة الذاتية وهو جالس فيقوم ويدخله داره ليكلمهم الكلام الخشن ويبالغ لهم في العظة ويقبلون يديه ويجلسون بين يديه متواضعين صاغرين»[4].

---

[1]- عبد الوهاب الشعراني ، الطبقات الكبرى المسماة بلواقح الأنوار في طبقات الأخيار، مكتبة عبد الحميد أحمد حنفي، مصر، دط، دت، ج1، ص 32.

[2]-المرجع نفسه، ج1، ص 32

[3]- محمد عبد الرحيم ، العارف بالله عبد القادر الجيلاني، ص 66 و69.

[4]- محمد موهوب بن الحسين ، وصايا وأدعية الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص 14.

وقد قال تلميذه الشيخ موفق الدين ابن قدامة المقدسي في صفته: «كان شيخنا عبد القادر نحيف البدن، ربع القامة، عريض الصدر واللحية طويلها، أسمر مقرون الحاجبين، ذا صوت جهوري وسمت وقدر وعلم... كان يكفي طالب العلم عن قصد غيره من كثرة ما اجتمع فيه من العلوم والصبر على المشتغلين وسعة الصدر، كان ملء العين وجمع الله فيه أوصافا جميلة وأحوالا غزيرة، وما رأيت بعده مثله»[1].

وكما كان يقول الشيخ علي بن الهيتي طريقة الشيخ الجيلاني: «كان قدمه على التفويض والموافقة مع التبري من الحول والقوة، وكانت طريقته تجريد التوحيد وتوحيد التفريد مع الحضور في موقف العبودية لا بشيء ولا لشيء»[2].

وكان رضي الله عنه يقول: «ما ولد لي قط مولود إلا وأخذته على يدي وقلت هذا ميت فأخرجه من قلبي أول ما يولد»... وكان يقول أيضا: «إذا مت عن الخلق قيل لك يرحمك الله وأماتك عن هواك فإذا مت عن هواك قيل لك رحمك الله وأماتك عن إرادتك ومناك فإذا مت عن إرادتك ومناك قيل لك رحمك الله وأحباك علما لا جهل بعده»[3].

وكان يقول: «أخرج عن نفسك وتنح عنها وانعزل عن ملكك وسلم الكل إلى مولاك، وكن بوابة على باب قلبك، فأدخل ما يأمرك بإدخاله وأخرج ما يأمرك» ... وكان رضي الله عنه يقول: «إذا أقامك الله تعالى في حالة فلا تختر غيرها، أعلى منها أو أدنى منها، قلت أما طلب الأدنى فظاهر لإستبداله الأدنى بالذي هو خير منه، وأما في الأعلى فلما يطرق الطالب للعلو من الهوى والإدلال، فالتمس من كلام الشيخ رضي الله عنه لمن لم يخرج عن هوى نفسه، أما من خرج عن ذلك فله السؤال في مراتب الترقي عبودية محضة»[4].

ويقول أيضا: «لا تختر جلب النعماء ولا دفع البلوى، فإن النعماء واصلة إليك بالقسمة استحليتها أم كرهتها، والبلوى حالة بك ولو كرهتها ودفعتها، فسلم لله تعالى في الكل بفعل ما يشاء فإن جاءتك النعماء فانشغل بالذكر والشكر، وإن جاءتك البلوى فاشتغل بالصبر والموافقة

---

[1]-محمد موهوب بن الحسين ، وصايا وأدعية الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص 13.

[2]- عبد الوهاب الشعراني ، الطبقات الكبرى، ج1، ص 110.

[3]-المرجع نفسه، ص 111.

[4]-المرجع نفسه، ج1، ص 112.

والرضا والتنعم بها والعدم والفناء منها على قدر ما تعطي من الحياة»[1].

وكان يقول: «لا تطمع أن تدخل زمرة الروحانيين حتى تعادي جملتك وتباين جميع جوارح الأعضاء وتنفرد عن وجودك وسمعك وبصرك وبطشك وسعيك وعملك وعقلك وجميع ماكان منك قبل وجود الروح، وما أوجدك فيك بعد النفخ، لأن جميع ذلك حجابك عن ربك عز وجل كما قال الخليل للأصنام في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[2] فاجعل أنت جملتك وأجزاءك أصناما مع سائر الخلق، لا ترى لغير ربك وجودا مع لزوم الحدود وحفظ الأوامر والنواهي، فإن خرم فيك شيء من الحدود فاعلم أنك مفتون قد لعب بك الشيطان فارجع إلى حكم الشرع وألزمه ودع عنك الهوى لأن كل حقيقة لا تشهد لها الشريعة فهي باطلة»[3].

فهو كان لا يعارض أن يتملك أحدنا الدنيا إنما يعارض أن تملكه الدنيا وتستحوذ على قلبه، فيقول في أحد مجالسه: «ومن الناس من تكون الدنيا في يده ولا يحبها، يملكها ولا تملكه تحبه ولا يحبها، تعدو خلفه ولا يعدو خلفها، يستخدمها ولا تستخدمه، يفرقها ولا تفرقه، قد صلح قلبه لله عز وجل ولا تقدر الدنيا أن تفسده، فيتصرف فيها ولا تتصرف فيه...ويحك الدنيا في اليد يجوز، في الجيب يجوز إدخارها لنية وبنية صالحة يجوز، أما في القلب لا يجوز، وقوعها على الباب يجوز أما دخولها إلى ما وراء الباب فلا يجوز، ولا كرامة لك»[4].

هذا ومن مناقب الشيخ الجيلاني رحمه الله: مجاهداته التي كانت قاسية الأهوال في بدايتها، فما ترك هولا إلا ركبه، وكان لباسه جبة صوف وعلى رأسه خريقة، وكان يمشي حافيا في الأشواك وغيرها. وكان يقتات بخرنوب الشوك وقمامة البقل وورق الخس من شاطئ النهر، ولم يزل يأخذ نفسه بالمجاهدات حتى طرقته من الله تعالى الحال، فإذا طرقه صرخ وهام على وجهه سواء كان في صحراء أو بين الناس، وكلن يتظاهر بالتخارس والجنون، وحمل إلى البيمارستان[*] للإستشفاء، وطرقته مرة الأحوال حتى ظن أنه قُبض وجاءوا بالكفن والغاسل وجعلوه على

---

[1]- عبد الوهاب الشعراني ، الطبقات الكبرى، ج1، ص 112.

[2]- سورة الشعراء، الآية: 77.

[3]- عبد الوهاب الشعراني، المرجع السابق، ص سابق114.

[4]- أبو الحسن علي الندوي ، رجال الفكر والدعوة، ص 344.

[*]- البيمارستان: المستشفى

المغتسل ثم سُري عنه وقام[1].

ويروي عن نفسه قائلا: «وقع في نفسي أن أخرج من بغداد لكثرة الفتن التي بها،وأخذت مصحفي وعلقته على كتفي ومشيت إلى باب الخليقة لأخرج منه إلى باب الصحراء فقال لي قائل إلى أين المشي؟ ودفعني دفعة حرضت منها -أظنه قال على ظهري- قال ارجع فإن للناس بك منفعة قال فقلت: إيش يكون علي من الخلق، أنا أريد سلامة ديني قال: ارجع مكانك فإن سلامة دينك في ذلك، ولم أر الشخص القائل، ثم طرقتني بعد ذاك أحوال أشكلت علي قلت أتمنى على الله أن يسهل لي من يكشفها، فلما كان من الغد اجتزت بالمظفرية ففتح رجل باب داره فقال لي يا عبد القادر، قال فجئت فوقفت عليه فقال: إيش طلبت البارحة أو بالأمس؟ فسكت لا أدري ما أقول له قال فاغتاظ مني ودفع الباب في وجهي دفعة عظيمة حتى طار الغبار من جانب الباب في وجهي، فلما مشيت قليلا ذكرت الذي ذكره الله فيه ووقع في نفسي أنه من الصالحين، ورجعت أطلب الباب فلم أعرفه وضاق صدري، وكان ذلك الرجل من الصالحين وهو الشيخ حماد الدباس ثم عرفته وصاحبته، وكشف لي كل ما كان يشكل علي، وكنت إذا غبت عنه وأطلب العلم ورجعت إليه يقول لي: إيش جابك إلينا أنت فقيه، مر إلى الفقهاء. وأنا أسكت، فلما كان يوم الجمعة خرج من بغداد ومعه جماعة من أصحابه ليصلي صلاة الجمعة في جامع الرصافة وأنا معه وكان في شدة البرد، فلما وصلت إلى قنطرة النهر دفعني حتى رماني في الماء، فقلت بسم الله غسل الجمعة، وكان علي جبة من صوف وخلوني ومشوا، فخرجت من الماء وعصرت الجبة وتبعتهم وتأذيت من البرد أذية كبيرة وضربني، وكان الشيخ حماد يؤذيني أذية كبيرة ويضربني وإذا غبت عنه أطلب العلم ورجعت إليه يقول: قد جاءنا اليوم الخبز الكثير والفالونج وأكلنا وما خبينا لك شيء. فطمع أصحابه لكثرة ما رأوه يؤذيني أذية كبيرة وجعلوا يقولون أنت فقيه إيش تعمل معنا وإيش جاء بك إلينا. فلما رآهم الشيخ يؤذونني غار لي وقال: يا كلاب لِـــمَ تؤذونه والله ما فيكم مثله أحدا، إنما أردت لأمتحنه فأراه جبلا لا يتحرك»[2].

كما انه كان يفتي على مذهب الامام الشافعي والامام احمد بن حمبل رضي الله عنهما .ولماكانت فتواه تعرض على العلماء بالعراق يعجبون بها أشد الإعجاب فيقولون سبحان من أنعم عليه [3].

---

[1]- عبد الوهاب الشعراني، الطبقات الكبرى، ج1، ص 109.

[2]- عبدالجليل عبد السلام ، السفينة القادرية للشيخ عبد القادر الجيلاني ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2002، ص9

[3]-عبيد الوهاب الشعراني، الطبقات الكبرى، ج1، ص109

**وفاته ومؤلفاته:**

توفي الشيخ الجيلاني رضي الله عنه بعد عمر مليء بالطاعة والعبادة، ببغداد ليلة السبت في الثامن من شهر ربيع الثاني سنة 561هـ ودفن في الليل في مدرسته بباب الأزج في بغداد، وذكر ابن الجوزي أنه دفن ليلا لكثرة الزحام وامتلاء الشوارع والأسواق فلم يتمكن من دفنه في النهار.(3)

وقال ابن النجار أنه فرغ من تجهيزه ليلا وصلى عليه ولده عبد الوهاب في جماعة ممن حضر من أولاده وأصحابه وتلامذته، ثم دفن في رواق مدرسته، و لم يفتح باب المدرسة حتى علا النهار، وأهرع الناس إلى الصلاة على قبره وزيارته وكان يوما مشهودا.

وكانت وفاته في خلافة المستنجد بالله العباسي رحمه الله[1].وقد بني على مرقده الشريف قبة شامخة، وعلى قبره ضريح، وأول برقع وضع على الضريح هو الذي وضعه المستنجد بالله بيده تقديرا لمنزلته العلمية[2].

وقد ترك الشيخ الجيلاني كتبا كثيرة ومؤلفات عديدة نذكر منها:

1- الغنية لطالبي طريق الحق، في جزئين، وهي في العبادات والأخلاق والتصوف والآداب الإسلامية، وفيها فصل خاص بالرد على الفرق البدعية الضالة، وقد طبع مرارا ،ومن أهم المباحث التي ارتبطت ببحثي هي مباحث الاخلاق والتصوف.

2- الفتح الرباني والفيض الرحماني، احتوى على مجموعة مجالس في الوعظ والارشاد، وقد تضمن كتابه اثنين وستين من مجالس ذكره بتواريخها وأماكنها مخاطبا فيها مريديه، ويعتبر هذا الكتاب عمدة بحثي لان الشيخ الجيلاني قد وضع فيه جل أفكاره ان لم تكن كلها، تكلم فيه عن مرحلة التخلق والتحقق بشيء من التفصيل ومما ساعدني على فهم أفكاره هو تكراره لنفس الفكرة بأساليب وبعبارات مختلفة لانها جاءت في شكل مجالس للوعظ كتبها تلامذته شفاهة و لم تكن بقصد التأليف ،طبع بالقاهرة عام 1302هـ بالمطبعة الميمونية..

---

[1]-يونس السامرائي، الشيخ عبد القادر الكيلاني، ص 36.

[2]-المرجع نفسه، ص 45.

3- فتوح الغيب، عبارة عن مقالات وعظية ركز فيها الشيخ على مفهومي الفناء والبقاء ولذلك كان من أهم مصادر بحثي، وقد اهتم به العلماء فتناولوه بالشرح والتعليق كما فعل ذلك شيخ الاسلام ابن تيمية يتركب من سبعين مقالة ، قد جمعها عبد الرزاق ابن الشيخ عبد القـــادر، طبعت في القاهرة وفي اسطنبول بدار الطباعة 1281هـــ.

4- الفيوضات الرحمانية، يتضمن هذا الكتاب شروحا لسلوك الطريقة القادرية وبعـــض أشعار الشيخ عبد القادر باللغة العربية، وقصيدته الخمرية الشهيرة، وأهم الأوراد، طبع بالقـــاهرة عام 1340هـــ.

5- حزب بشائر الخيرات، طبع بالإسكندرية عام 1304هـــ.

6- جلاء الخاطر، ذكره حجي خليفة في كشف الظنون.

7- وصايا الشيخ عبد القادر، توجد مخطوطة بمكتبة فيض الله الشيخ مراد تحـــت عـــدد 251.

8- بهجة الأسرار ومعدن الأنوار في بعض مناقب القطب الرباني سيدي محي الدين أبي محمد عبد القادر الجيلاني، وهو عبارة عن مجموعة أقوال الشيخ عبد القادر من تأليف نور الدين أبي الحسن علي بن يوسف الشطنوفي، وهو أستاذ بالجامع الأزهر كان مولده بعد موت الشيخ عبد القادر بثلاث وثمانين سنة ومنه فإن جميع ما يذكره عن الشيخ الجيلاني يمكن أن يكون سمعه ممن شاهدوا ذلك عيانا. طبع هذا الكتاب بالقاهرة عام 1304هـــ.

أرجح ان هذا الكتاب ليس من تأليف الشيخ الجيلاني لأنه يختلف تماما من حيث الأسلوب وصياغة الافكار وغموضها عما جاء في كتابي الفتح الرباني وفتوح الغيب .

9- رسائل للشيخ عبد القادر بالفارسية كان يراسل بها مريديه في عراق العجم وقد ترجمها إلى العربية حسام الدين المتقي[1].

10- الأوراد: الورد الصغير، والورد الكبير، قوت القلوب، مفتاح القلوب، فتح البصائر، وهذه الأوراد توجد بمكتبة ملة الفاتح رقم 887[2].

---

[1] - يونس السامرائي، الشيخ عبد القدرالكيلاني، ص 34.

[2] -المرجع نفسه، ص35.

# الفصل الأول:

## آليات التحقق عند الشيخ الجيلاني

المبحث الأول: المعرفة عند الجيلاني:

المبحث الثاني: منهج الجيلاني في التخلق:

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

## تمهيد:

تبين في الفصل السابق الخاص بترجمة الشيخ الجيلاني، أنه مرّ بمراحل في طريقه الصوفي، فأخذ العلم الكافي، ومارس ضروب المجاهدات في مرحلة التخلق التي يتم فيها أخذ العلم اللازم لهذا الطريق، ومن طبيعة العلم النافع أن يدفع صاحبه إلى التوبة ومنها إلى الإرادة وعلو الهمة، فيدخل السالك الطريق من بابه الواسع، مرتكزا في ذلك على مبدئي التخلية من الصفات المذمومة والتحلية بالصفات المحمودة، ولايتم له ذلك إلا عن طريق شيخ عارف مؤهل للمشيخة الذي يعلمه ركائز الطريق الأساسية وهي الذكر والفكر والخلوة.

هذا ما سنطّلع عليه بالتفصيل في الفصل الثاني، المتضمن المرحلة الأولى من رحلة الشيخ الجيلاني في التصوف وهي مرحلة التخلق.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

## المبحث الأول: المعرفة عند الجـــــــيلاني:

قبل التطرق إلى المنهج الجيلاني في تحصيل المعرفة، نعرج أولا على مفهوم المعرفة عند الصوفية وطرق الوصول إليها، وطبعا بمرورنا على المفهوم اللغوي والاصطلاحي يتضح المعنى أكثر.

### مفهوم المعـــــــرفة:

**لغة:** يقال عرفه أي علمه[1] وعرّفه الأمر أعلمه به[2]، والمعرفة والعرفان إدراك الشيء بتفكر وتدبر لأثره، فهي أخص من العلم ويضاده الإنكار[3]، وفرّقوا بين العلم والمعرفة فقالو بأن المعرفة إدراك الجزئي والعلم إدراك الكلي، ومن شرط العلم أن يكون محيطا بأحوال المعلوم إحاطة تامة، ومن أجل ذلك وُصف الله بالعلم لا بالمعرفة، فالمعرفة أقل من العلم،[4] وهذا رأي الشيخ السهروردي وعمه أبو النجيب في حديثه القائل: فضّل الجمهور من مشايخنا العلم على المعرفة...لأن الله تعالى يوصف بالعلم، وأجاز أبو طالب المكي التبادل اللفظي بين العلم والمعرفة[5].

**اصطلاحا:** من المتفق عليه بين الصوفية، أن موضوع المعرفة بالله هو الذات الإلهية، صفاتها أسماؤها أفعالها وكل ما يتعلق بها، ويؤكد السهروردي كغيره من الصوفية، على أنه لا يمكن للإنسان مهما بلغ من الصفاء أن يصل إلى المعرفة الحقيقية الشاملة لذات الله سبحانه وتعالى، وأيضا كما يقول الغزالي بأن الإنسان لا يعرف نفسه حق معرفتها، فكيف به يطمع في أن يعرف الله[6]. وما يسميه الصوفية معرفة هي نوع من الذوق الذي لا دخل للعقل فيه، وهي شهود القلب الذي إستضاء بنور الله، ثم إن المعرفة تتضمن فوق ذلك فناء إنيّة العبد، بذهاب صفات البشرية عنه والبقاء بصفات الله، وينسب الصوفي كل

---

[1]- محمد مرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، دار الكتب العلمية، بيروت، دط، دت، مج 12، ج:23و24، ص73.

[2]- ابن منظور، لسان العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، دط، دت، مج5، ص636.

[3]- محمد مرتضى الزبيدي، المرجع السابق، ص73.

[4]- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة، بيروت، دط، 1982م، ج2، ص392.

[5]-عائشة يوسف المناعي، أبو حفص عمر السهروردي، حياته وتصوفه، دار الثقافة، الدوحة، ط1، 1992م، ص267.

[6]-أحمد عبد الرحيم السايح، عائشة يوسف المناعي، دراسات في التصوف والأخلاق، دار الثقافة، الدوحة، ط1، 1991م، ص180-181.

معرفة بالله إلى الله نفسه، وتفرّق هذه الطائفة بين معرفة الصوفي بالله وبين علم الفلاسفة والعلماء بالله عن طريق العقل والبرهان.

والمعرفة بالله ليست العلم بوحدانيته التي يؤمن بها المؤمنون جميعا، وليست من علوم البرهان والنظر التي للحكماء والمتكلمين، ولكنها معرفة صفات الوحدانية التى تحصل لأولياء الله خاصة، لأنهم هم الذين يشاهدون الله بقلوبهم، فيكشف لهم ما لا يكشفه لغيرهم من عباده[1]. فالمعرفة بهذه الصفة من حيث موضوعها أشد ما تكون غموضا عند الصوفية، وليس من اليسير على من لم يسلك طريق الصوفية، أن يعرف شيئا مفصلا عن ذلك الموضوع، وذلك لأن الحقائق التي تنكشف للصوفي في خلواته، حقائق فردية ذوقية لا يمكن أن تتصف بصفة العمومية، كما أن مايتحدث عنه الصوفي من المعارف يكون عادة بلغة الإشارة والرمز، فيغلب على عباراته صيغة الإبهام والتقيد، ويصبح من العسير على الإنسان العادي أن يشارك الصوفي ولو إلى حد ما، في تذوق ما يعبر عنه من معارف[2]، يقول القشيري معترفا بذلك: «وقد تكلم المشايخ في المعرفة، فكل نطق بما وقع له وأشار إلى ما وجده في وقته»[3].

والمعرفة بالمعنى الصوفي، موهبة ومنحة من الله تعالى، من حيث أنها وصول إلى الله، وما الوصول إلى الله إلا مكاشفات القلوب ومشاهدات الأسرار كما يقول النوري، فالسالك المتحقق بالمعرفة يسمى واصلا، ووصوله إلى الله هو وصوله إلى المعرفة به، كما يقول ابن عطاء الله السكندري: «ووصولك إلى الله وصولك إلى العلم به وإلا فجلّ ربنا أن يتصل به شيء أو يتصل هو بشيء.» [4] ويقول عنها القشيري مفصلا في تعريفها: «أنها صفة من عرف الحق سبحانه بأسمائه وصفاته، ثم صدق الله في معاملاته، ثم تنقى عن أخلاقه الرديئة وآفاته، ثم طال بالباب وقوفه، ودام بالقلب اعتكافه ، فحظي الله بجميل إقباله، وصدق الله تعالى في جميع أحواله، وانقطع عن هواجس نفسه، ولم يصغ بقلبه إلى خاطرٍ

---

[1]-عبد المنعم الحفني المعجم الصوفي، الكتاب الشامل لألفاظ الصوفية ولغتهم الإصطلاحية، ومفاهيمهم ومعاني ذلك ودلالاتهم، دار الرشاد، القاهرة، ط1، 1997، ص235-236.

[2]-أحمد عبد الرحيم السايح، عائشة المناعي، المرجع السابق، ص181.

[3]-أبو القاسم عبد الكريم القشيري، الرسالة القشيرية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1998، ص342

[4]- أحمد عبد الرحيم السايح، المرجع السابق، ص174.

يدعوه إلى غيره، فإذا صار من الخلق أجنبيا، ومن آفات نفسه بريا ومن المساكنات والملاحظات نقيا، ودام في السر مع الله مناجاته، يسمى عند ذلك عارفا، وتسمى حالته معرفة.

وفي الجملة فبمقدار أجنبيته عن نفسه، تحصل معرفته بربه». [1]

هذا بالنسبة للصوفية فهل يختلف هذا المفهوم عند الجيلاني ؟

**مفهوم المعرفـــة عند الجيلاني:**

المعرفة بالمعنى الصوفي، هي مكاشفات القلوب ومشاهدات الأسرار ، لذلك نجد شيخنا الجيلاني لما سُئل عن المعرفة قال: «هي الإطلاع على خفايا مكامن المكنونات، وشواهد الحق في جميع المشيآت، بتلميع كل شيء منها على معاني وحدانيته، واستدراك علم الحقيقة في فناء كل فان عند إشارة الباقي إليه، بتلويح هيبة الربوبية، وتأثير أثر البقاء، فما أشار إليه الباقي بتلميع جلال الألوهية، مع النظر إلى الحق بعين القلب» [2] ومعنى كلامه هذا يشرحه بوضوح، عندما يتحدث عن الفناء الذي يعتبر بوابة المعرفة، كما يقول أبو العباس المرسي: «ولا يتم الدخول إلى الله إلا من بابين من باب الفناء الأكبر وهو الموت الطبيعي، ومن باب الفناء الأصغر الذي تعنيه هذه الطائفة.»[3] فالمعرفة والفناء لا ينفصلان، ولا فرق بينهما يذكر، حيث يمكن أن يشرح أحدهما معنى الآخر، لذلك لما نطّلع على قول الشيخ الجيلاني في الفناء نجده يشرح بشيء من التفصيل معنى المعرفة قائلا: «افن عن الخلق بإذن الله تعالى، وعن هواك بأمر الله تعالى، وعلى الله توكلوا إن كنتم مؤمنين، وعن إرادتك بفعل الله تعالى، وحينئذ تصلح أن تكون وعاء لعلم الله تعالى»[4]. ونجد في تعقيب ابن تيمية على كلام الشيخ الجيلاني في المعرفة قوله: «فحكمه يتناول خلقه وأمره: أي لا تطع الخلق في معصية الله تعالى، ولا تتعلق بهم في جلب منفعة، ولا دفع مضرة، أما الفناء عن الهوى بالأمر، وعن الإرادة بالفعل، بأن يكون فعله موافقا للشرع لا

---

[1]-أبو القاسم القشيري، الرسالة القشيرية، ص342.

[2]-علي بن يوسف الشطنوفي، بهجة الأسرار ومعدن الأنوار، دار الكتب الإسلامية، أديس أباب، دط، دت، ص121.

[3]-نقلا عن : عبد الوهاب فرحات، أبو الحسن الشاذلي، حياته ومدرسته في التصوف، رسالة ماجستير، تحت إشراف بشير بوجنانة، جامعة الأمير عبد القادر، كلية أصول الدين والشريعة والحضارة الإسلامية، قسنطينة،ص128.

[4]-عبد القادر الجيلاني، فتوح الغيب، شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، دط ،دت ، ص12.

لهواه، وأن تكون إرادته تابعة لفعل الله لا لإرادة نفسه، فلا تكون له إرادة لم يؤمر بها»[1] لذلك يقول الشيخ الجيلاني: -تكملة لحديثه- «فعلامة فنائك عن خلق الله تعالى، انقطاعك عنهم وعن التردد إليهم، واليأس مما في أيديهم، وعلامة فنائك عن هواك، ترك التكسب والتعلق بالسبب في جلب النفع ودفع الضر، فلا تحرك فيك، ولا تعتمد عليك لك، وعلامة فنائك عن إرادتك بفعل الله أنك لا تريد مرادا قط، ولا يكون لك غرض ولا يبقي لك حاجة ولا مرام، فإنك لا تريد مع إرادة الله سواها» [2] وله في المقالة الثالثة والستين من فتوح الغيب، كلام عن المعرفة أيضا، يقول فيه: «رأيت في المنام وكأني أقول يا مشرك بربه في باطنه بنفسه، في ظاهره بخلقه وفي عمله بإرادته فقال رجل إلى جنبي: ما هذا الكلام؟ فقلت: هذا نوع من المعرفة »[3] .

وهذه المعرفة هي غاية المرحلة الصوفية بأكملها، وهذه الغاية لا تتاح إلا بعد أن يكون المحب قد ذابت إرادته بالكلية في الإرادة الإلهية و لم يعد له في نفسه شيء، وأصبح رهنا بالتصريف الإلهي المباشر، فإن تحدث فبالله وإن تحرك فبالله[4].

يبدو من خلال ما تقدم من مفهوم المعرفة، أن لها منهجا خاصا يوصل صاحبه إلى فناء إنيّته، ويبقى لله وحده دون سواه. فما هو منهج الوصول إلى المعرفة عند الصوفية عامة وعند عبدالقادر الجيلالي خاصة؟.

### منهج تحصيل المعرفة:

### أ-عند الصوفية:

إن ما تقدم يُعد جزءا يسيرا جدا مما قيل في مفهوم المعرفة، ولن نستطيع أن نحصي مفهوم المعرفة لأنها معرفة ذوقية فهي أشبه ما تكون بالشعور، كل عارف يعبر عما وصل إليه. أما منهج الصوفية في الوصول إلى هذه المعرفة، فهو تقديم المجاهدة، ومحو الصفات المذمومة، وقطع العلائق كلها والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى، فكما قال الغزالي: «فالأنبياء والأولياء انكشف لهم الأمر، وفاض على صدورهم

---

[1]-أحمد ابن تيمية، مجموع الفتاوى، المكتب التعليمي السعودي، المغرب، دط، دت، مج10، علم السلوك، ص490.

[2]- عبد القادر الجيلاني، فتوح الغيب، ص12، 13.

[3]- المصدر نفسه ، ص 38.

[4]- ابراهيم بسيوني، الإمام القشيري سيرته وآثاره، مذهبه في التصوف، المكتبة العصرية، بيروت، دط، 1972، ص259.

النور، لابالتعلم والدراسة والكتابة للكتب، بل بالزهد في الدنيا والتبري عن علائقها وتفريغ القلب من شواغلها والإقبال بكنه الهمّة على الله تعالى، فمن كان لله كان الله له»[1]. والسائر إلى الله المجاهد لنفسه ينبغي له أن يتتره عن أن يلتفت إلى شيء تطيب به النفس، ويظل رقيبا عليها. يبذل جهده في سبيل ذلك، حتى تصبح وكأنها من رقابته في سجن، لا تجد لها متنفسا ولا ملجأ، فتموت شهواتها وتذوب عيوبها وتتلاشى آفاتها وتصبح سَلما للقب، عندئذ تنتهك الحجب ويصلح لإقبال الله عليه.

ونرى أهمية هذه المجاهدة في رأي الحكيم الترمذي، أنها هي المنهج الموصل إلى المعرفة إذ ما يزال العبد حارس نفسه فلاينجذب القلب إليها، حتى تذل وتنكسر، وتتلاشى نيران أهوائها ويزول دخان شهواتها من الصدر. فيمتلئ بنور المعرفة، فيرى بقلبه شأنا عجيبا من عظمة الله عز وجل، ومن لطفه بعبيده وبره وإحسانه إليهم، فإذا عاد إلى الدنيا بعد ذلك لم تضره، لأنه لا يأخد منها إلا بحق، ولا يترك منها إلا بحق، ويصير بمثابة رجل شرب ترياقا حتى امتلأت عروقه منها، فإن تعرض لحية أوعقرب، لم يجد السم مسلكا في عروقه، وكذلك هذا العبد قد امتلأ قلبه فرحا بالله، فلن تجد مسرات الدنيا إلى قلبه سبيلا، فعندها يمد يده إلى ما أحل له من الدنيا، وقلبه حر من رق النفس، وفتنتها فيقبل عطايا ربه عز وجل. فإن أخذ أخذ بحق، وإن أمسك أمسك بحق، وإن أعطى أعطى بحق[2].

إن جماع ما تنتهي إليه الصوفية من أمر النفس هو أنها حجاب بين العبد وربه، وأن منشأ هذا الحجاب إنما يرجع إلى المذموم من أخلاقها، سواء أكان هذا المذموم نظريا أم كسبيا، وأن سبيل العبد إلى الإتصال بربه إنما يكون بكشف الحجاب، وهذا الكشف إنما يحصل بمقدار ما يأخذ به العبد نفسه من رياضة ومجاهدة، فتُفطم عن المألوف وتُحمل على خلاف هواها في عموم الأوقات[3]. ومعروف أن أبا حامد الغزالي قد أقرّ بعد تجربته و تقصّيه وبحثه أن لا وصول إلى معرفة الله إلا بالذوق والحال وتبدل الصفات وهذا كله بالمجاهدة والرياضات المعلومة عند القوم، ونجد ابن سينا حينما أراد أن يحدد طريق البصيرة، حتى يصير سر الإنسان مرآة مجلوة، لم يحدده بقراءة وبحث، وإنما بإرادة ورياضة، كما يرى أبو

---

[1]-أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، دار القتيبة، بيروت، ط1، 1992م، ج3، ص32.

[2]-عبد الفتاح عبد الله بركة، الحكيم الترمدي ونظرياته في الولاية، من مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية، دط، دت، ج2، ص213.

[3]-عبد الرحمن السلمي، أصول الملامتية وغلطات الصوفية، مطبعة الرشاد، مصر، دط، 1985، ص110-111.

الحسن النوري أن التصوف ليس علما، فلو كان علما لحصل بالتعلم وليس له طريق إلا تزكية النفس[1].

فإذا عزم العبد على مجاهدة النفس، فمن مجاهدته لنفسه أن يلزم كل جارحة من جوارحه السبع الفطام عن عملها، حلالا كان أم حراما، حتى يستريح من تحكمها، وتستسلم له ولتوجيهه، فإذا اتجه إليها اتجه بحق، وإذا انصرف عنها انصرف بحق، دون أن يكون واقعا تحت تأثير رغبته النفسية ظاهرة أو خفية[2]. هذا لأن من شأن النفس إذا حُبست عنها أفراحها فكأن صاحبها صيّرها في سجن، فيتقرب إلى الله عز وجل بذلك فيثيبه الله نورا في القلب، فيزداد بذلك النور قوة على منع النفس شهواتها، فيستولي عليها وهي تذل وتذبل، ولا يجد العدو إليها سبيلا[3]، وكما يقول أبو علي الدقاق: «من لم يكن له في بدايته قومة، لم يكن له في نهايته جلسة»[4].

ونجد إبراهيم بن أدهم لما يتحدث عن الأبواب الرئيسية لمجاهدة النفس يقول: "لن ينال الرجل درجة الصالحين، حتى يجوز ست عقبات:

أولها: أن يغلق باب النعمة ويفتح باب الشدة، والثاني: أن يغلق باب العز ويفتح باب الذل . واالثالث: أن يغلق باب الراحة ويفتح باب الجهد والرابع: أن يغلق باب النوم ويفتح باب السهر . والخامس أن يغلق باب الغنى ويفتح باب الفقر. والسادس: أن يغلق باب الأمل ويفتح باب الاستعداد للموت." [5]

وهي كما نرى أن غلق هذه الأبواب وفتح ما يقابلها هو جهاد عظيم للنفس، ولن يتم فتح ما يقابلها إلا بتوفيق من الله وتيسير منه سبحانه ،وهو نفس رأي الإمام القشيري، بل هو نفس المنهج الذي تحقق به وصار إماما، حيث يرى أن مجاهدة النفس تظل مستمرة، حتى ينتصر القلب ويتدرج في مدارج التحقق إلى أن يصل إلى قمة العرفان[6].

---

[1]-عبد الحليم محمود، قضية التصوف، المدرسة الشاذلية، دار المعارف، ط2، دت، ص424و425

[2]-عبد الفتاح عبد الله بركة، الحكيم الترمذي ونظريته في الولاية، ص197.

[3]-المرجع نفسه، ص204.

[4]- القشيري، الرسالة القشيرية، ص134.

[5]-المرجع نفسه، ص134-135.

[6]- المرجع نفسه، ص133.

مما تقدم نرى أن منهج تحصيل المعرفة عند الصوفية، هوتخلية القلب من الأوصاف المذمومة، وتحليته بالأوصاف المحمودة، وذلك عن طريق مجاهدة النفس، فهل يتفق شيخنا الجيلاني معهم ويسير وفق منهجهم؟

**ب-منهج تحصيل المعرفة عند الجـــــيلاني:** يعتمد الشيخ الجيلاني في منهجه على المجاهدة في مرحلة التخلق، ثم يركز على فناء إرادة السالك عموما وفناء إنيّته خصوصا في مرحلة التحقق. ففي المرحلة التخليقية، المجاهدة عنده ضرورية، تتطلب من السالك الإرادة والهمة والجهد والصبر وأن يصحب بعض ملوك المعرفة فيقول: "هذا شيء لا يجيء بعجلتك، يحتاج إلى حبال ورجال وصبر ومعاناة، وأن تصحب بعض ملوك المعرفة"[1] كما يضع لهذه المجاهدة حدودا وضوابطا، وهي أن تكون وفق ماجاء به الشرع، فيقول: "هذه الطريق لا تسلك مع النفس والهوى، بل مع الحكم[*] والعمل به." [2]، والأصل في المجاهدة عنده مخالفة الهوى في عموم الأوقات، و ان يستعمل معها في ذلك التخويف من الله عز وجل، ومنعها من حظوظها. كما يرى الجيلاني أن كل ذلك لا يتم إلا بالمراقبة، فيعلم أن الله تعالى عليه رقيب ومن قلبه قريب، ويعلم أحواله ويرى أفعاله ويسمع أقواله. ولما سئل الشيخ في المقالة الخامسة والسبعين عن التصوف وعن أي شيء مبناه، فأجاب بأن التصوف لم يأخذ بالأقوال، وإنما يأخذ بالأعمال ومجاهدة النفس وكذلك قطعها عن عاداتها ومستحسناتها، وأن يكون كل هذا عن علم حتى لا يؤذي المريد[3]، فركن المجاهدة يرتكز على مبدأي التخلية والتحلية، وهذه هي مرحلة التخلق.

أما في مرحلة التحقق، يركز الشيخ على مبدأ التفويض والإستسلام لله وترك الإرادة وقد اشتهر بذلك، حتى أن الشيخ علي بن الهيتي وهو أحد المشايخ المعاصرين له، شهد له بذلك قائلا: "كان قدمه على التفويض والموافقة، مع التبرّي من الحول والقوة، وكانت طريقته تجريد التوحيد وتوحيد التفريد مع الحضور في موقف العبودية لا بشيء ولا لشيء"[4].

---

[1]-عبد القادر الجيلاني، الفتح الرباني والفيض الرحماني، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2001، ص188.

[*]-الحكم: هو الأوامر والنواهي الشرعية،أنظركتاب الشيخ الجيلاني: الفتح الرباني ،ص256

[2]- عبد القادر الجيلاني، المصدر السابق، ص188.

[3]- عبد القادر الجيلاني، فتوح الغيب، ص158.

[4]-عبد الوهاب الشعراني، الطبقات الكبرى ، ج1، ص110.

إن أحسن من جمع منهج الجيلاني هو مقالة الشيخ عدي بن مسافر –وهو أيضا من المشايخ الربانيين المعاصرين للجيلاني– التي قال فيها: «كان الشيخ عبد القادر رضي الله عنه طريقته الذبول تحت مجاري الأقدار بموافقة القلب والروح واتحاد الباطن والظاهر، وانسلاخه من صفات النفس مع الغيبة عن رؤية النفع والضرر والقرب والبعد»[1].

وتفصيل هذا المعنى قد ذكرناه في مفهوم المعرفة عند الجيلاني، ونقصد بذلك معنى الفناء وترك الإرادة، التي يتحدث فيها عن الفناء عن الخلق والهوى والإرادة.

يبدو من خلال إطلاعنا على منهج الصوفية في تحصيل المعرفة، أنهم يهملون دور العقل، فلا يكاد يظهر له أثر في منهجهم، فهل يعتبرون العقل خارجا عن دائرة المعرفة الذوقية، وبالتالي فلا دور له فيها، خاصة إذا وجدنا أحدهم يقول: "والأولى بالشيخ إذا رأى المريد يجنح إلى استعمال عقله في النظريات...فليطرده من منزله فإنه يفسد عليه بقية أصحابه"[2]، أم أن لهم قولا آخر في وظيفة العقل ودوره في حصول المعرفة؟ وما هي نظرة شيخنا الجيلاني للعقل؟

### 3 – دور العقـــــــل في تحصيل المعرفة:

#### أ – عند الصوفية:

إذا رجعنا إلى أوائل المتصوفة مثل الإمام القشيري، نجده قد أقرّ المعرفة العقلية واشترطها، إلا أنه لا يعوّل عليها وحدها، وركز اهتمامه على بلوغ العرفان، متمسكا بما يوصله إليه، لأن العرفان فيض إلهي مباشر، لا كسب للعبد فيه إلا أن يكون صادقا وجادا منذ بداياته، وله إرادة وهمّة عالية، وإتباع صحيح، فيقول الإمام القشيري في هذا المعنى: "وعند هذه الطائفة، المعرفة به سبحانه في الإنتهاء ضرورية، وفي الإبتداء كسبية...إلا أنها ليست شيئا بالإضافة إلى المعرفة الضرورية كالسراج عند طلوع الشمس وانبساط شعاعها عليه"[3].

إن طبيعة العرفان تختلف اختلافا جوهريا عن المعرفة العقلية، فأرباب العقول يستدلون بوجود

---

[1]– عبد الوهاب الشعراني، الطبقات الكبرى ، ج1، ص110.

[2]– محمد بن بريكة، موسوعة الطرق الصوفية، الإيضاح والبيان، دار الحكمة، الجزائر، ط1، 2007م، ج2، ص52.

[3]–أبو القاسم عبد الكريم القشيري، الرسالة القشيرية، 260.

المخلوق على الخالق...أما أرباب العرفان فالله عندهم حاضر مشهود، فهو لا يغيب حتى يستدلوا بشيء عليه. وفي هذا المعنى يقول ابن عطاء الله السكندري: "شتان بين من يُستدل به ومن يُستدل عليه، متى غاب حتى يستدل عليه؟ متى بعد حتى تكون الآثار هي التي توصل إليه"[1].

وفرّق الغزالي بين العقل الفلسفي والعقل الشرعي، هذا الأخير الذي يعرف حدوده ويعترف بعجزه في البحث فيما وراء الطبيعة، فذلك لايقدر عليه إلا الكشف الصوفي، وحصر وظيفة العقل هنا في تنظيم هذا الكشف[2]، فهو يرى أن هناك ما يحيله العقل وما يدركه وما لا يناله.

كذلك المتصوفة المستقيمون، يطالبون السالكين بقياس كشوفاتهم بالكتاب والسنة، فما كان خارجا عنها فهو مردود، كما قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي: "قد ضُمنت لنا العصمة فيما جاء به الكتاب والسنة، و لم تضمن لنا العصمة في الكشوف والإلهام"[3].

وقال أبو يزيد: عملت في المجاهدة ثلاثين سنة، فما وجدت شيئا أشد علي من العلم ومتابعته[4]. وما الشدة التي مر بها أبو يزيد إلا الدقة والبحث والإستدلال، وكلها عمل العقل.

ويقول ابن عربي: "ويجلّ الله سبحانه وتعالى أن يعرفه العقل بفكره ونظره، فينبغي للعاقل أن يخلي قلبه عن الفكر إذا أراد معرفة الله تعالى من حيث المشاهدة".[5] وابن عربي هنا يحدد أداة المعرفة الذوقية بأنها القلب والقلب وحده، ولا دخل للعقل البتة في هذه الدائرة. والمعرفة عند الصوفية محجة، لأنها عن كشف محقق لا تدخله الشبهة، بخلاف العلم الحاصل عند النظر، فلا يسلم من دخول الشبه والحيرة[6]، ولذلك مشكلة المعرفة عند الصوفية محددة في صورة حاسمة وهي شهادة القلب[7].

ويحصر الهجويري وظيفة العقل في الخدمـــــة، فهو يساعد القلب ليحصل على المعرفة، قائلا:

---

[1]- القشيري، الرسالة القشيرية، ص306-307.

[2]-مجدي محمد إبراهيم، التصوف السني حال الفناء بين الجنيد والغزالي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2002، ص611.

[3]-عمر عبد الله كامل، التصوف بين الإفراط والتفريط، دار ابن حزم بيروت، ط1، 2001م، ص124.

[4]- المرجع نفسه، ص12، 6.

[5]-محمد بن بر يكة، موسوعة الطرق الصوفية، ج2، ص43.

[6]- المرجع نفسه، ص48.

[7]-المرجع نفسه، ص124.

"نصيب القلب القربة، ونصيب العقل الخدمة"[1]. فهم لم يرفضوا مساهمة العقل في تحصيل المعرفة، ذلك العقل المؤسس على الشرع، بل يرون أنه ضروري باستدلاله، ليقف بجانب الكشف والذوق حتى تصبح المعرفة يقينية. ويبقى الأساس في هذه المعرفة القلب[2].

والصوفية ليسوا أعداء العقل، فهو ملكة هامة، وهو الفارق بين الحق والباطل كما أنه مناط التكليف من الأمر والنهي[3]، ولكنهم أعداء حصر نطاق المعرفة في وسيلة واحدة هي العقل.[4] ومن بين بين خدمات العقل للقلب، كتلك المتمثلة فالاعتبار، الذي هو عمل من أعمال الفكر العقلي. يقول أبو حفص عمر السهروردي: "ومن نتائج الإعتبار الذي يكون إلا لأولى الأبصار تنبت المعرفة في القلب"[5]. القلب"[5].

إن العقل الذي وصل بإنجازاته العظيمة إلى القمر ودراسة النجوم، مع ما وصلت إليه التكنولوجيا الحديثة، هذا العقل العظيم لا شأن له بالمساتير...مساتير الملأ الأعلى، لا شأن له بكشف المحجوب الروحي، ومعارج القدس، إنه وقف أمام ذلك عاجزا لا يجد جوابا[6].

ونجد من المفكرين المعاصرين كطه عبد الرحمان من يبرر هذا الرأي من وجهة أخرى، قائلا: «لما كان النظر الإلهي يتوسل باللغة، وكانت اللغة نظاما أو نسقا مركبا من وحدات منفصلة ومتمايزة فيما بينها، وكانت هذه الوحدات مجرد علامات صوتية لها وظيفة رمزية، فلا يمكن أن يطلب من اللغة الخروج عن وصفها الرمزي والصوري، لتنقل إلينا الأشياء ذاتها بسيماتها الخارجية، ومعالمها الوجودية فما رأينا قط لفظ أحضر بين أيدينا موجودا من الموجودات...ينتج عن هذا، أن الأخلاق عند الصوفية تجارب وخبرات، لا مجرد أفكار وتصورات...فالصوفي تأتيه معاني الأسماء، وتظهر له حقائقها في التجارب الحية، لا في الأفكار المجردة، وبهذا يكون التقرب بالذكر تجربة حية، وتجربة إحسان. حيث أن

---

[1]- محمد بن بر يكة، موسوعة الطرق الصوفية، ج2، ص133.

[2]-عائشة يوسف المناعي، ابو حفص عمر السهروردي، ص264.

[3]-المرجع نفسه، ص261.

[4]-محمد كمال إبراهيم جعفر، في الفلسفة الإسلامية، مكتبة الفلاح، الكويت، ط1، 1986م، ص136.

[5]- عائشة يوسف المناعي، المرجع السابق، ص261.

[6]-محمد بن بريكة، المرجع السابق، ج2، ص53.

سبب تعرف الذاكر على معاني الأسماء، هو تعرفها ذاتها له، هبة من الله لا تعرفه هو عليها كسبا منه»[1].

ونجد ابن عربي قد بيّن سبب ضعف النظر العقلي، وهوأن استدلاله مقلوب بالنسبة إلى علم التجلي قائلا: "ومما يدلك على ضعف النظر العقلي، من حيث فكرة كون العقل يحكم على العلة أنها لا تكون معلولة لمن هي علة له، هذا حكم العقل لا خفاء به، وما في علم التجلي إلا هذا: وهو أن العلة تكون معلولة لمن هي علة له"[2]. فالمعرفة الصوفية، هي معرفة ذوقية كشفية إلهامية باطنية، تأتي القلب مباشرة دون إعمال العقل، ودون استخدام الحواس، فهي إذن معرفة خاصة فردية ونشاط روحي خاص بكل صوفي[3].

**ب – دور العقل عند الجيلاني:**

أما رأي الشيخ الجيلاني، فقد اشتهر بشدة تمسكه بالكتاب والسنة، وما كان عليه السلف الصالح، حتى أنه لما يذكر في مجلسه الإمام أحمد بن حنبل يبادر إلى القول والدعاء قائلا: "أماتنا الله على مذهبه أصلا وفرعا وحشرنا في زمرته"[4] وما أكثر ما كان يكرر نصحه بعبارات مختلفة، يوصي بالإتباع بالإتباع وعدم الابتداع ، قائلا: "عليكم بالإتباع من غير ابتداع، عليكم بمذهب السلف الصالح، امشوا في الجادة المستقيمة "[5]، فالحارس على حدود الشرع و المتفحص لكل دخيل، هو العقل بلاشك وما عملية التفكر والتأمل التي يدعو إليها الشيخ الجيلاني، والتي هي أصلا من صميم الدين إلا من عمل العقل الصرف، لذلك كان يدعو الشيخ قائلا:"ما أُعطي عبد التفكر إلا أعطي العلم بأحوال الدنيا والآخرة"[6] فاستعمال العقل عند شيخنا لا يتوقف عند مرحلة بعينها، بل يرافق السالك في جميع مراحل مراحل رحلته إلى الله، لأنه خادم وحارس للسائر لئلا يحيد عن حدود الشريعة، كما أنه يزيد صاحبه إذا

---

[1]– طه عبد الرحمان ، العمل الديني و تجديد العقل ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء، ط3، 2000، ص 171

[2]– محمد بن بريكة ، موسوعة الطرق الصوفية، ص 42.

[3]– المرجع نفسه، ص 73.

[4]–علي محمد الصلابي، العالم الكبير والمربي الشهير عبد القادر الجيلاني، ص21.

[5]– عبد القادر الجيلاني ، الفتح الرباني و الفيض الرحماني، ص 45.

[6]– المصدر نفسه، ص204.

أحسن استعماله قربا من الله ويرده إليه مفتقرا من الحول والقوة، معترفا بنعمائه، محبا له غاية الحب وهذا كله بسبب التفكر بالعقل.

لذلك نجده يقول: "إن ذكرت ربك بألسن حسن صنعه فتح أقفال قلبك"[1] فالذكر الحي هو ما كان مقرونا بالفكر، ولذلك يظهر أثره في القلب وإذا انفتح القلب تعرض لنفحات الرحمة الربانية، وهو يرى أن كمال إيمان المؤمن "يصح له بالفكر الدائم، والنظر في الأصول والفروع بالتفكر...بالفكر الصحيح يصح التوكيل، وتغيب الدنيا عن القلب." [2] من خلال هاته الأقوال، يتضح أن العقل هو الذي يفتح القلب، ويهيئه لتلقي المعرفة وهو في هذا لا يختلف عن غيره من المتصوفة السنيين، أمثال القشيري، فيرى أن العقل ضروري في تحصيل العلم الشرعي وفهمه، ليحسن تطبيقه، وأن يكون اعتقاده سليما من الشبهات والبدع، مبنيا على الاستدلال والتفكر، وهو من وظيفة العقل الخالصة، كما أن العقل خادم يخدمك إذا طلبت منه ذلك وأصغيت له واتبعته ليوصلك إلى بوابة المعرفة. وللشيخ الجيلاني تعريف لماهية العقل، إذ يقول: "هو ميزان العدل، ولسان الفضل، وشرع الكرم، ومعدن الحكم، ومقر النعم، عمود الفكر ودليل الفهم، وترجمان السر". [3] ويبدو أنه أبدى بهذه المعاني بعد أن صار من أرباب المعرفة، فالعقل عند الشيخ يبقى مرافقا في الطريق بما استوعب من المعارف التاريخية والتفكر فيها، فيقول عن مبتغى السالكين: "هذا يصح بالفكر الدائم والنظر إلى الأصول والفروع بالتفكر في أحوال النبيين والمرسلين والصالحين، وكيف استنقذهم الحق عز وجل من أيدي الأعداء ونصرهم عليهم وجعل لهم من أمورهم فرجا و مخرجا" وهي من باب التفكر في أيام الله.

ويرى شيخنا أن استعمال العقل بطريقة سليمة يساعد في طهارة القلب وتنقيته من الشرك بأنواعه قائلا: «بالفكر الصحيح يصح التوكل، وتغيب الدنيا عن القلب...وينسى جميع الخلق، ويذكر الحق عز وجل »[4] .

والسالك يحتاج إلى إعمال العقل لتقديم النية قبل العمل، خاصة إذا كان صاحبها سالكا لم يصل

---

[1]-علي بن يوسف الشطنوفي، بهجة الأسرار، ص40.

[2]- المرجع نفسه والصفحة.

[3]-المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

[4]- عبد القادر الجيلاني ، الفتح الرباني والفيض الرحماني، ص 204.

إلى مطلوبه بعد، فيتوجه إليه الشيخ قائلا: «يا غلام إذا تكلمت فتكلم بنية صالحة، وإذا سكت فاسكت بنية صالحة، كل من لا يقدم النية قبل العمل فلا عمل له...»[1]، فتحصيل المعرفة إذن لا يحصل بالوصف الذي هو عمل العقل، بل بالتجربة الحية، يقول أيضا: "«إستدل عليه وأطلبه، وأترك الدنيا والآخرة، فإن مالك منها يأتيك ولا يفوتك، تركك لما سواه يصفي قلبك من الأكدار، إذا لم يدلك قلبك عليه فأنت كالبهائم بلا عقل، قم عن الدنيا وتعالى إلى العقلاء الذين دلهم عقلهم على الله تعالى، فتعلم العقل منهم وأعرف به نفسك وربك»[2].

[1]- عبد القادر الجيلاني ، الفتح الرباني والفيض الرحماني، ص 98.

[2]- المصدر نفسه، ص 108-109-

## المبحث الثاني: منهج الجيلاني في التخلق:

بعد أن تطرقنا إلى مبحث المعرفة عند الجيلاني، يمكننا الآن أن ندخل إلى مبنى منهجه في تحصيل هذه المعرفة، ونطلع على أسس وأعمدة بنائه.

إن الدارس لآراء الشيخ الجيلاني في السلوك إلى الله من بدايته إلى نهايته، يجده يركز على مفاهيم ومعاني عميقة، إذا جمعتها شكلت هيكل منهجه التربوي المعرفي، ففي طريقة الشيخ الجيلاني محطتان رئيسيتان، لابد لكل سالك الوقوف عندهما وقفة يكون متلبسا بهما حالا و مقاما، فماهي هاتان المحطتان أو بالأحرى المرحلتان؟

**أولا: مرحلة العلم**: اهتم الشيخ الجيلاني بالجانب العلمي والنظري، إذ أن معظم توصياته تتعلق بالعلم والعمل به. فما مفهوم العلم عند الصوفية عموما؟ وعند شيخنا خصوصا؟

### 1-مفهوم العلم:

**أ-المعنى اللغوي للعلم**: العلم لغة هو الإدراك مطلقا، وقد يطلق على التعقل[1].

**ب-المعنى الإصطلاحي**: يطلق العلم على الاعتقاد الجازم المطابق للواقع وعلى إدراك حقائق الأشياء وعللها[2].

وتعريف العلم عموما: أنه إدراك وقواعد وملكة.

الإدراك: هو التصور المجرد للأشياء.

والقواعد: هي جملة المبادئ والقوانين والمصطلحات التي وضعها أهل الفنون المختلفة.

والملكة: هي الخبرة المكتسبة من رسوخ المرء فيما حصل عليه من معارف، وفيما وعاه من مناهج علم خاص أوعلوم شتى[3]. أما عند بعض الصوفية، كالحكيم الترمذي فقد قسم العلوم إلى ثلاثة أنواع:

---

[1]- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج2 ، ص 99.

[2]- نفس المرجع، ص 99.

[3]- محمد الغزالي، جدد حياتك دار المعرفة ، الجزائر، دط، 2000 م، ص 57.

علم الحلال والحرام، وعلم الحكمة وعلم المعرفة.

فعلم الحلال والحرام وهو معرفة الله في حدوده وأحكامه، وهو بداية كل سالك ومريد، ولا يستقيم له الأمر إلا بإحكام هذه المعرفة[1].

وعلم الحكمة: وهو علم عيوب النفس ودقائق الورع، وصفاء الصدق، و تدبير الله في خلقه و ترك تدبير المرء نفسه...

أما علم المعرفة ويسميها "بالحكمة العليا"، فهو علم به يموت عنك كل داء دفين، وتكبر بكبرياء الله، وتعتز بعزة الله، وتطهر بقرب نزاهته تعالى... [2].

ويقسم السهروردي العلم إلى فريضة وفضيلة ويجعل الكتاب والسنة أساسهما، فيعرف العلم الفريضة بأن لابد للإنسان من معرفته ليقوم بواجب حق الدين.

والعلم الفضيلة: ما زاد على قدر الحاجة مما يكسب المرء فضيلة نفسه موافـــقة للكتاب والسنة. وقد عرّف العلم أيضا بأنه «إدراك حقائق الأشياء مقولا ومسموعا"[3] وقال فـــيه: «العلم نور يفرق بين الإلهام والوسوسة ويسمى حكمة»[4].

ولقد اعتبر أن مشايخ الصوفية وعلماء الآخرة هم المجدون في طلب العلم الفريضة، تمكنوا من معرفته للقيام بحقه، ففتح الله عليهم أبواب العلوم كلها.

والصوفية عموما يقسمون العلم إلى علم ظاهر وعلم باطن ويعنون بالقسم الأول علم أحكام الشريعة، والقسم الثاني علم خاص يلقيه الله في قلب وليّه ويخصه به، ويسمى أيضا: بالعلم اللّدني الذي قال الله تعالى فيه في حق الخضر: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾[5].

---

[1]- عبد الفتاح عبد الله بركة ، الحكيم الترمذي و نظريته في الولاية، ص 307.

[2]- المرجع نفسه، ص 308.

[3]- عائشة يوسف المناعي، أبو حفص عمر السهروردي، ص 269.

[4]- المرجع نفسه، ص 270.

[5]- سورة الكهف، الآية: 65

**ب-مفهوم العلم عند الشيخ الجيلاني:**

يقول الشيخ الجيلاني بنوعين من العلم، إلا أنه يعدد في المسميات فتارة يطلق على النوع الأول: الحكم وعلى النوع الثاني: العلم فيقول: «اعملوا بالحكم حتى يلحقكم ذلك العمل بالعلم»[1] ويعرف الحكم قائلا: «الحكم هو الأوامر والنواهي»[6] ثم يعرف العلم قائلا: «...إذا لم يبق بينك وبين الله حجاب من حيث قلبك...أطلعك على خزائن سره ، وأطعمك طعام فضله، وسقاك شراب الأنس، وأقعدك على مائدة القرب منه»[2]. ويوضح السبيل إلى النوع الثاني هذا قائلا: «اعمل بهذا الحكم وأقضي حقه فإنك إذا عملت به أخذ العمل بيدك، وأدخلك على من عملت له، فتستفيد منه علما لم تكن تعلمه، فتكون معه بعلمه ومع خلقه بحكمه»[3].

ولما يسميه فقها، يقول: «يا غلام...تفقه الفقه الظاهر ثم اعتزل إلى الفقه الباطن» ويسميهما بالعلم الأول والعلم الثاني قائلا: «إذا عملت بهذا الحكم الذي هو العلم الأول نبعت عليك عين العلم الثاني»[4]، «ويسميهما بالعلم المشترك والعلم الخاص فيقول: «إذا فرغ(السالك) من تعلم العلم المشترك، أُدخل في العلم الخاص. علم القلوب والأسرار فإذا تمكن في هذا العلم، صار سلطان دين الله عز وجل»[5] .

ومما تقدم يتبين لنا، أن الشيخ الجيلاني اهتم اهتماما بالغا بالعلم. ولعل دليل ذلك، ما يبدو واضحا من تعدد مسمياته للعلم أكثر من غيره من الصوفية. فلنتعرف على هذه القيمة التي أولاها الشيخ الجيلاني للعلم.

**2 – قيمة العلم عند الشيخ الجيلاني:** كان الجانب العلمي موضع عناية للشيخ عبد القادر الجيلاني، إذ أن في معظم توصياته يقدم العلم أولا قبل كل شيء. يقول: «ما من شيء إلا ويحتاج إلى نية

---

[1]- عبد القادر الجيلاني، الفتح الرباني و الفيض الرحماني، ص 172.

[2]- المصدر نفسه، ص 172

[3]- المصدر نفسه ص 133.

[4]- المصدر نفسه، ص 25.

[5]- المصدر نفسه ، ص 146.

وعقل وعلم وإتباع لمن يعرف»[1] ويحذّر المريد بشدة من أن يسير إلى الله بدون علم، فيقول: «ويلك أنت تعبد الله تعالى بغير علم، وتزهد بغير علم وتأخذ الدنيا بغير علم، ذلك حجاب في حجاب. مقت في مقت...القول أولا و العمل ثانيا، وبه تصل إلى الحق تعالى وما وصل من وصل إلا بالعلم»[2]. ورغم أن الخلوة تعزل المريد عن كل ما يضره إلا أن الشيخ يشترط عليه العلم قبل الخلوة فيقول: «لا تأتي الخلوة ومعك جهل، لا تتخذها قبل أن تتهذب، تفقه ثم اعتزل»[3]. ويعتبر أن السعي لطلب العلم والعمل ممتد النفع في الدنيا والآخرة، على عكس السعي لطلب متاع زائل كمتاع الدنيا.

قائلا: «اجعل سعيك في طلب العلم والعمل ولا تجعله في طلب الدنيا، عن قريب ينقطع سعيك فاجعل سعيك فيما ينفعك»[4] وطبعا هذا السعي المشروط بالإخلاص لوجه الله: «تعلم العلم لوجه الله عز وجل واعمل به، فإنه يؤدبك، العلم حياة والجهل ظلام». و يدعو تلاميذه إلى الصبر في طلب العلم وخدمته قائلا: «إذا صبرت على خدمة العلم أُعطيت فقه القلب ونور الباطن»[5] ويعلمهم بأن العلم إذا إذا أعطيته كلك أعطاك بعضه»[6]. ويستشهد على أن العلم يجلب الخشية بقوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا﴾[7]، ويقول: «لما علموا خافوا»[8]، ويبين ترتيب أخذ العلوم، لأن العلم العلم الظاهر كالشجرة والعلم الباطن ثمارها، ولا يمكن أن يكون العكس، فيقول في أحد مجالسه: «اعملوا بالحكم يلحقكم ذلك العمل بالعلم...فيقربكم الله منه، ويطلعكم على خزائن أسراره...وكل هذا ثمرة العلم بالكتاب والسنة اعمل بها ولا تخرج عنها»[9] وهذا العلم هو النوع الثاني الوهبي وليس الكسبي.

---

[1]- عبد القادر الجيلاني، الفتح الرباني و الفيض الرحماني، ص 182

[2]- المصدر نفسه، ص 111.

[3]- المصدر نفسه، ص 259.

[4]- المصدر نفيه، ص 151.

[5]- المصدر نفسه، ص 147.

[6]- المصدر نفسه، ص 125.

[7]-سورة فاطر، الآية: 28.

[8]- المصدر نفسه، ص253.

[9]- المصدر نفسه، ص 172 .

ولذلك لابد من التعلم من الخلق أولا، وهو الحكم ثم من الخالق ثانيا وهو العلم اللّدني... «أطلب العلم فإنه فريضة»[1] فلا سير إلى الله إذن بدون علم ولا شك أن المراد بالعلم في هذا الطريق هو العلم بالكتاب والسنة وما يحتاجه السالك في سيره[2]. والشيخ الجيلاني يرى أن المريد خلال سيره يحتاج إلى العلم الظاهر فقط في بدايته، لكنه بعدما يقطع أشواطا يستعمل الحكم والعلم معا، ويقول في ذلك: «المريد الصادق كل وارد يرد إليه يعرض أعماله الظاهرة على مرآة الحكم ويعرض أعماله الباطنة على مرآة العلم، فإن وافق أعماله المرآتين أدخله ذلك على الملك عز وجل وإن وافق عمل مرآة دون مرآة لا يدخل»[3]، ويضرب لذلك مثالا فيقول: «الحكم هو الأوامر والنواهي فنقبل ما يأمرنا الحكم ونسمع ونطيع حينئذ تأتينا الآفات فهاهنا يحتاج أن يكون العبد عالما، يقول أحدنا ما بالي أُبتليت مع قيامي بالطاعة، يقال له تحتاج إلى قليل من العلم»[4] ولذلك قال النبي ﷺ: «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين»[5].

إن الشيخ الجيلاني بعنايته هذه للعلم، يريد أن يحمي السالك من الوقوع في الإنحرافات والمتزلقات والبدع فطريق القوم كالدهليز المظلم، ومع طول مسافته، لن يستطيع أحد إجتيازه إلا بمصباح العلم، وقد بين الإمام الغزالي أن مصدر إنحرافات المتصوفة هو الجهل وعدم سلوك الطريق بشكل صحيح، بحيث يكون هذا السلوك بعد العلم، فالكثير منهم جهلة ومع ذلك إدّعوا المعرفة، بترديد كلمات هي في حقيقتها طامات، ويظن أنه أُوتي علم الأولين والآخرين، وكل ذلك بناء على أغاليط يخدعهم بها الشيطان، لإنشغالهم بالمجاهدة قبل إحكام العلم[6]، فكل من طلب من علوم القوم رقيقها قبل علمه بجملة

---

[1]- عبد القادر الجيلاني، الفيض الرحماني، ص 159

[2]- سعيد حوى ، تربيتنا الروحية ، مكتبة رحاب ، الجزائر، دط، دت، ص 74.

[3]- عبد القادر الجيلاني، المصدر السابق، ص 269.

[4]- المصدر نفسه، ص 256.

[5]-محمد بن اسماعيل البخاري، الجامع الصحيح، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، كتاب: العلم، باب: من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، رقم الحديث:71، ص42.

[6]- عمر عبد الله كامل، التصوف بين الافراط و التفريط، ص 205.

بجملة أحكام العبودية منها، وعمل عن جلي الأحكام إلى غامضها، فهو مخدوع بهواه، لاسيما إن لم يحكم الظواهر الفقهية للعبادات وتحقق الفارق بين البدعة والسنة في الأحوال ويطالب نفسه بالتحلي قبل التخلي أو يدعي لها ذلك[1]. ويقول الجيلاني في معنى هذا: «الفقه في الدين سبب لمعرفة النفس وكما قيل من عرف نفسه عرف ربه ومن عرف ربه عرف كل الأشياء».[2]

وهذا الدين الذي بدأ وحيه بكلمة اقرأ، لن تقوم له قائمة إلا إذا كان أتباعه أصحاب معارف ناضجة وألباب. فالعلم للإسلام كالحياة للإنسان، .وكثيرا ما يصاحب السداد عمل أولوا العلم ، وخير دليل على ذلك ما جاء في آية من آيات القرآن أن الضمير الدافع إلى الخير، الوازع عن الشر المراقب له سبحانه والحريص على مرضاته، هو ضمير العالم المستنير والخبير بربه: بقوله تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[3]» [4]. الناس في نظر الإسلام أحد رجلين: إما متعلم يطلب الرشد، وإما عالم يطلب المزيد، وليس بعد ذلك من يأبه له.[5] وعن معاذ بن جبل: «تعلموا العلم، فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة ومذاكرته تسبيح والبحث عنه جهاد وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة...التفكر فيه يعدل الصيام، ومدارسته تعدل القيام...وهو إمام والعمل تابعه، يُلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء»[6].

أما طريقة أخذ العلم، فالشيخ الجيلاني يقول بالطريقة المباشرة عن شيخ عامل بعلمه، ويعطي علما حيا يمشي على الأرض حتى يقع للطالب الاستيعاب الكامل للكيفيات المطلوبة والانتفاع بذلك على أفضل وجه[7]. يقول الشيخ في هذه المعنى: «العلم يُؤخذ من أفواه الرجال لا من الدفاتر، يُؤخذ من

---

[1]- أحمد زروق، قواعد التصوف، مكتبة الكليات الأزهرية، مصر ،ط2، 1972، قاعدة 18، ص 11.

[2]- عبد القادر الجيلاني، الفتح الرباني، ص131

[3]- سورة الزمر، الآية: 9.

[4]- محمد الغزالي، خلق المسلم، دار المعرفة، الجزائر، دط، دت، ص 217.

[5]- المرجع نفسه، ص 221.

[6]- المرجع نفسه، ص 220.

[7]- طه عبد الرحمان ، العمل الديني و تجديد العقل، ص 191.

الحال لا من المقال، يؤخذ من الفانين عنهم وعن الخلق، الباقين بالحق عز وجل وعلى هذا المسلك كان السلف الصالح من العلماء» [1]، فقد بلغ حرص الإمام مالك ﷺ على مبدأ المراقبة المباشرة درجة قصوى، حتى أنه كان يُظهر لتلاميذه كراهته للأخذ عنه بالكتابة، فقيل له: «ماذا نصنع؟ فقال: تحفظون وتفهمون حتى تستنير قلوبكم ثم لا تحتاجون إلى الكتابة، ومقصوده التحقق العملي أي بالدراية وليس بالرواية»[2]. نستنتج مما تقدم أن للعلم قيمة عظمى، وهذا لمردوده الكبير وآثاره الجلية، فماهي هذه الآثار وهذه المردودية؟

## 3-مردودية العلم:

### 3-1-التوبة:

إن العلم يورّث الإرادة القوية والهمة العالية لدى المريد، كما يبث فيه روح التوبة، وعلى قدر ما يحصل من العلم على قدر ما يحصل من القوة في الهمة والإرادة والنصح في التوبة وكما قال ابن القيم: «ومنزل التوبة أول المنازل وأوسطها وآخرها...وحاجة العبد للتوبة ضرورية كما كانت حاجته إليها في البداية ضرورية»[3].

ولا يستغني عنها أحد من الناس في جميع مراحل الطريق، حتى أن رسولنا ﷺكان يتوب مائة مرة في اليوم، فماهي حقيقة التوبة، وما هو مفهومها؟ وبماذا تتميز توبة العارفين على غيرهم؟

### 1) مفهوم التوبة:

**أ -المعنى اللغوي للتوبة:** تاب إلى الله يتوب توبا وتوبة ومتابا، أناب ورجع عن المعصية إلى الطاعة، ومنه قوله تعالى: ﴿ **وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا** ﴾[4] ومعنى التوبة عموما أن يترك العبد المعصية وكل ما حرم الله عليه ونهى، وأن يمتثل أوامره و يعمل بها قدر

---

[1]- عبد القادر الجيلاني ، الفتح الرباني و الفيض الرحماني، ص 167.

[2]- طه عبد الرحمان، المرجع السابق، ص 192.

[3]- حامد بن محمد بن حامد المصلح، المعاصي و آثارها على الفرد و المجتمع ، الناشر مكتبة الضياء ، ط3 ، 1992 م ص 321

[4]-سورة الفرقان، الآية 71

المستطاع[1].

**ب-المعنى الاصطلاحي**: هي الرجوع عما كان مذموما في الشرع إلى ما هو محمود فيه[2] قال سهل بن عبد الله: «التوبة ترك التسويف»[3]، والتوبة هي أول مراحل الطريق بل هي المدخل المفضي إليه، والقرين المتنقل في مدارجه من البداية إلى النهاية..والتوبة في نظر الإسلام، جهد لابد أن يقوم به كل إنسان منتظرا آملا رحمة الله ولهذا... لابد أن يجثو المذنب في ساحة الرحمان ثم يهتف من أعماق قلبه: رب اغفر و ارحم، وأنت خير الراحمين، ليُؤَمل-بعدُ- في مغفرة الله ورحمته[4]، وطبيعي أن تكون هذه التوبة نقلة كاملة من حياة إلى حياة، وفاصلا قائما بين عهدين متمايزين كما يفصل الصباح بين الظلام والضياء...إن هذه العودة الظافرة التي يفرح الله بها هي انتصار الإنسان على أسباب الضعف والخمول...ثم استقرار في مرحلة أخرى من الإيمان والإحسان والنصح والاهتداء، هذه هي العودة التي يقول الله في صاحبها: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾[5]»[6].

إن الاهتداء هو الطور الأخير للتوبة النصوح[7]، وهي التوبة التي أمر الله بها عباده وقال فيها تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾[8] . والنصوح صيغة مبالغة من ناصح وتعني وتعني الخلوص من الشوائب[9]، وحقيقتها هي عمل عقلي وقلبي وبدني[10]. والتوبة كما شرحها الإمام الغزالي في إحيائه مبيّنا بأنها معنى مركبا من ثلاثة عناصر، علم وحال وعمل، وهذه

---

1- ابن منظور ، لسان العرب، ج1، ص 454.

2- القشيري، الرسالة القشيرية، ص 127.

3- المرجع نفسه، ص 130.

4- محمد الغزالي ، الجانب العاطفي من الإسلام ، دار الشهاب، باتنة، دط، دت، ص 192و193.

5- سورة طه، الآية: 82.

6- محمد الغزالي ، المرجع السابق، ص 202.

7-المرجع نفسه، ص 203.

8- التحريم الآية 08

9- يوسف القرضاوي ، في الطريق إلى الله، التوبة إلى الله، مؤسسة الرسالة، ط1، 2001، ص 44.

10- المرجع نفسه، ص 46

العناصرمتداخلة مع بعضها البعض كما سنرى في التوضيح التالي:

العلم هو أول مراحل التوبة، والمتمثل في معرفة عظيم ضرر الذنوب، فإذا عرف السالك ذلك معرفة محققة بيقين غالبٍ على قلبه، ثار من هذه المعرفة تألما للقلب، فيسمى تألمه هذا ندما- وهذا هو الحال وهو المرحلة الثانية- فإذا غلب هذا الألم على القلب و استولى عليه، انبعث من هذا الألم ما يسمى بالإرادة والقصد إلى فعل له تعلق بالحاضر وبالماضي وبالمستقبل، أما تعلقه بالحال فبالترك للذنب الذي كان ملابساً له، وأما بالماضي فبتلافي ما فات بالجبر و القضاء إن كان قابلا للجبر. وأما بالمستقبل فبالعزم على ترك الذنب المفوّت للمحبوب إلى آخر العمر [1]. وهذه هي مرحلة العمل.

عندما ذاع صيت الشيخ الجيلاني في بغداد، قيل عنه أنه فتح باب البيعة والتوبة على مصراعيه يدخل منه المسلمون، يجددون العهد والميثاق مع الله تعالى[2].

فماذا قال في التوبة وما مفهومها عنده؟

**مفهوم التوبة عند عبد القادر الجيلاني:** يقول الشيخ في كتاب الغنية: قال تعالى: ﴿ **وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ** ﴾[3].

هذا خطاب للعموم بالتوبة، فالتوبة هي الرجوع عما كان مذموما في الشرع إلى ما هو محمود في الشرع، و يفسر الآية قائلا: فكأنه عز وجل يقول ارجعوا إلي من هوى نفوسكم ووقوفكم مع شهواتكم، عسى أن تظفروا ببغيتكم عندي في المعاد. أما خطاب الخصوص فلقوله تعالى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ** ﴾[4]،[5] و يشرح معنى النصوح بأنها الخالص لله تعالى الخالي عن الشوائب، وهي

---

[1]- أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج3، ص 8 - 9.

[2]- علي محمد الصلابي : عبد القادر الجيلاني ،ص 59

[3]- سورة النور : الآية 31

[4]- سورة التحريم ، الآية: 08

[5]- عبد القادر الجيلاني ، الغنية لطالبي طريق الحق، دار الجيل، بيروت،ط1، 1999، ج1 ص 284

توبة مجردة لا تتعلق بشيء ولا يتعلق بها شيء، وفي هذا النوع من التوبة، لا يُحدِّث التائب نفسه بعودٍ إلى معصية ولا ذنب من الذنوب، وهذا النصح يجعل التائب يترك الذنب خالصا لله حتى يختم له بحسن الخاتمة. ويعلق على كلمة التائبين في قوله تعالى: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1]، قائلا: «بأن التعريف في كلمة "التائبون" ثم ذكر وصفه بهذه الأوصاف الحميدة، تدل على أن التائب هو من هذه صفته، وبها استحق البشارة بالإيمان»[2] وعنده أن التوبة فرض عين في حق كل شخص حتى الأنبياء عليهم السلام لم يستغنوا عن التوبة، فقد روي عن النبي ﷺ قوله: «إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة»[3]، فالكل مفتقر إليها وإنما يتفاوتون في المقادير، ولذلك فالشيخ يقسمها إلى: توبة العوام من الذنوب، وتوبة الخواص من الغفلة، وتوبة خاصة الخاصة من ركون القلب إلى ما سوى الله عز وجل فشتان بين تائب وتائب[4].

ووضع الشيخ شروطا للتوبة ووضّح كيفيتها، وهذه الشروط أولها الندم على فعل المخالفة، وعلامة صحة الندم أن يوجد التائب في قلبه رقة وفي دمعته غزارة تعبر عن صدقه في ندمه. أما ثاني الشروط فهو ترك الذنب في جميع الحالات، والثالث العزم على عدم العودة إلى الذنب أبدا. ومعنى الندم عند الشيخ هو ألم قلب التائب عندما يعلم بفوات المحبوب، فتطول حسراته وأحزانه وبكاؤه وهذا الندم يورث العزم والقصد، فأما العزم فهو القرار الجازم على عدم العودة إلى الذنب، لما تحقق عنده من العلم بضرر ذلك وأنه كالسم القاتل، فيهرب ضرورة من المعاصي، وأماالقصد فهو ما ينبعث من القلب من إرادة التدارك في حالته الحاضرة بترك كل مخالفة، وفي حالته الماضية بأن يعوّض ما فاته في المستقبل بأن يداوم على الطاعة وعدم المخالفة إلى آخر عمره[5].

---

[1]- سورة التوبة، الآية 112.

[2]- عبد القادر الجيلاني، الغنية لطالبي طريق الحق، ج1، ص285.

[3]- ابو الحسن مسلم ابن الحجاج، صحيح مسلم، بيت الافكار الدولية، دط، 1998م، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: استحباب الاستغفار والإكثار منه، رقم الحديث:2702، ص1083.

[4]- عبد القادر الجيلاني، المصدر السابق، ص 289.

[5]- المصدر نفسه، ص 297.

ويفصل الشيخ كثيرا في مرحلة الإصلاح ويبيّن كيفية التدرج فيها، مبتدءا بإقامة الفرائض وقضائها ثم قضاء السنن المؤكدة، ثم ينتقل بعدها إلى النوافل من تهجد وأوراد وغيرها. وأما المعاصي فينبغي أن يراجع نفسه منذ بلوغه سن الرشد عن جميع ما اقترفته جوارحه، ويبدأ في التكفير عن كل حسنة من جنسها، ويرد مظالم العباد المادية والمعنوية .

نخلص مما سبق إلى أن التوبة عند الشيخ الجيلاني تتم على وجهين: الأول: توبة فيما بين العبد وبين الله، بأن يعقد عهدا وثيقا مع الله تعالى بالطاعة وعدم العودة إلى ماكان عليه، ويستعين على ذلك بالعزلة والصمت وقلة الأكل وقلة النوم، والتورع عن الحرام والشهوات، ويكثر مجالسة العلماء بالله ليعرف الطريق إلى الله تعالى[1].

أما الوجه الثاني: فهو التوبة في حق العباد، وحقوق العباد على نوعين، مادية ومعنوية، فإن كانت المظالم في حق الناس مادية، كأخذ الأموال بالباطل أوالضرب أوالقتل وغيرها، فردها بتكفيره بما يناسبها شرعا، وإن كانت معنوية كالأذية في الأعراض والنفوس فيكفر عنها بالاستحلال منهم و الإحسان إليهم والدعاء لهم[2].

والملاحظ على نظرة الجيلاني للتوبة أنها لا تختلف عما عرضناه من آراء غيره في موضوع التوبة، إلا أنه تغلب عليه نظرة الصوفي المربي المصطبغ بصبغة الإحسان في كل شيء، وله تعريف آخر للتوبة نجد اللغة الصوفية فيه واضحة، وقد أعطاها بعدا عرفانيا في قوله: «التوبة نظر الحق تعالى إلى عنايته السابقة القديمة لعبده و إشارته له بتلك العناية إلى قلب عبده وتحديده إياه بالشفقة مجتذبا إليه قابضا، فإذا كان ذلك كذلك انجذب القلب إليه عن كل همة فاسدة، وتابعه الروح ووافقه العقل، وصحّت توبته وصار الأمر كله لله» [3] .

ولعل هذا ما قصده ابن القيم لما تحدث عن حقيقة التوبة بأنها محفوفة بتوبة من الله على العبد قبلها وتوبة منه تعالى بعدها، فتكون توبة العبد بين توبتين من ربه، سابقة ولاحقة، فإنه تاب عليه أولا إذنا

---

[1]-عبد القادر الجيلاني، الغنية لطالبي طريق الحق، ج1، ص 308 ، 309.

[2]- المصدر نفسه، ص 300 – 301.

[3]- علي بن يوسف الشطنوفي، بهجة الأسرار، ص 122.

وتوفيقا وإلهاما، فتاب العبد، فتاب الله عليه ثانيا قبولا وإنابة[1] لقوله تعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾[2]. وقد جاء في هذا المعنى جواب لرابعة العدوية على سؤال رجل: إني أكثرت من الذنوب و المعاصي، فلو تبت هل يتوب علي؟ فقالت: لا بل لو تاب عليك لتبت[3].

إن توبة العارفين تتناسب مع درجة توحيدهم لله، فلو غفل العارف عن ذكر الله بخاطر، أو نظر أحدهم إلى حسناته لكان ذلك خدش في توحيده وعليه أن يسارع في التوبة منها، ولذلك يقول عبد الله التميمي شتان مابين تائب يتوب من الزلات وتائب يتوب من الغفلات وتائب يتوب من رؤية الحسنات[4]، وهذا ليحي القلب لله وحده دون دبيب رغبة أوملاحظة عمل، ولعل هذا ما عناه الواسطي بالمحوسية حين قدم نيسابور وسأل بعض تلاميذ أبي عثمان –شيخ الملامتية– بماذا كان يأمركم شيخكم؟ فقالوا: كان يأمرنا بإلتزام الطاعات ورؤية التقصير فيها، فقال: أمركم بالمحوسية المحضة، هلاّ أمركم بالغيبة عنها برؤية منشئها ومجريها[5]. ولما سُئل رويم عن التوبة، قال: هي التوبةُ من التوبة[6]، لأن توبة المحققين أنهم لا يذكرون ذنوبهم بما غلب على قلوبهم من عظمة الله تعالى، ودوام ذكره، وقد علّلها الجنيد قائلا: «لأني إذا كنت في حال الجفاء فنقلني إلى حال الوفاء، فذكرُ الجفاء في حال الصفا جفاء»[7].

إن التائب إلى الله تتولد في قلبه مجموعة مشاعر من لوعة وندم وعزم على تجديد العهد، تتبلور كلها

---

[1]–محمد عمر الحاجي، عبد الله بدران، التوبة والإنابة، دار المكتبي، دمشق، ط1، 1999، ص216.

[2]– سورة التوبة، الآيتين: 117-118.

[3]– القشيري، الرسالة القشيرية، ص132.

[4]–المرجع نفسه، ص131.

[5]– إبراهيم بسيوني، الإمام القشيري، ص270

[6]– القشيري، المرجع السابق، ص131

[7]– المرجع نفسه، ص130.

لتنشأ منها إرادة وهمة لدى التائب، ليتحول بمقتضاها إلى مريد صادق يتحمل المشاق ليكون من زمرة المقربين إلى الله تعالى، والإرادة والهمة بدايةً: هي تأشيرة الدخول في طريق التصوف، ونهاية: هي علامة عرفان كبرى، لذلك يولي الصوفية اهتماما كبيرا بالإرادة والهمة. فما مفهوم كل من الإرادة والهمة؟ وما دورها المعرفي؟

**مفهوم الإرادة والهمة:**

**1/ مفهوم الإرادة:**

**أ –المعنى اللغوي للإرادة:**

الإرادة موضوعة في اللغة لتعيين ما فيه غرض، وهي في الأصل طلب الشيء أوشوق الفاعل إلى الفعل، ويشترط في هذا الشوق إلى الفعل، أن يشعر الفاعل بالغرض الذي يريد بلوغه[1] .

**ب – المعنى الإصطلاحي للإرادة:**

تعد الإرادة عند الصوفية معيار دقيق في سلم الترقي، وتتلون بتلون الدرجة التي يصل إليها السالك، ففي بداية الطريق هي عزم القلب على طلب الحق تعالى، ثم تصبح لوعة وشغف وهكذا إلى أن تفنى في إرادة الله، وذلك يعتبر أبرز علامات التوحيد الشهودي، فإرادة العبد هي العقبة الكؤود التي تعيق السالك من بلوغ القمة، وتختلف تعريفات الصوفية، فكل يعرفها حسب رؤيته لأهمية الدرجة التي يريد أن يركز عليها، فنجد القشيري يقول عنها بأنها بدأ طريق السالكين، وهي اسم لأول مترلة القاصدين إلى الله تعالى. وسميت إرادة لأن الإرادة مقدمة كل أمر، فما لم يُرِد العبد شيئالم يفعله، فلما كان هذا أول الأمر لمن سلك طريق الله عز وجل سمي إرادة، تشبيها بالقصد في الأمور الذي هو مقدمتها. أما حقيقتها فهي نهوض القلب في طلب الحق سبحانه، ولهذا يقال أنها لوعة تهون كل روعة[2]. ويعبر عنها أبو علي الدقاق تعبيرا ذوقيا خالصا فيقول: «الإرادة لوعة في الفؤاد...لدغة في القلب...غرام في الضمير...إنزعاج في الباطن...نيران تتأجج في القلوب»[3].

---

[1]- جميل صليبا ، المعجم الفلسفي ،ج 1 ،ص 57

[2]- القشيري ، الرسالة القشرية، ص 236.

[3]- المصدر نفسه، ص 237.

ولذلك جعلها ابن تيمية أساس الطريق بل هي الطريق كله قائلا: «ولهذا كان الطريق الإرادة»[1] وهذا يعني أن للإرادة بعد معرفي، فهي تظل فاعلة مؤثرة في السالك لتورثه حضور القلب ليرتقي إلى تفريغ قلبه عما سوى الله، فهي بمثابة العنصر الحركي في الطريق[2]، والدافعة لصاحبها حتى يبلغ مطلبه ويتصل بربه، فكل حال ومقام يكون المحب على إرادة تناسب ذلك الحال وذلك المقام, بمعنى أن في كل مرحلة يفقه المحب مراده من الله تماما كما يفقه مراد الله منه، فيكون على الدوام على إرادة للترقي في القرب من الله تعالى والتعظيم له[3]. نلاحظ هنا أن الإرادة تتعلق بالمحبة فيصبح السالك يريد لأنه يحب[4].

إن قول ابن تيمية بأن الطريق الإرادة، لأن هذه الأخيرة تستمر من البداية إلى النهاية، فلا يبدأ السالك إلا بها، ولا يمكن أن يصل بدونها فهي من المتصوفة بمثابة العقل من الفلاسفة.

والصوفي أولا وأخيرا مريد، بفعل الإرادة وحدها يتعلق توجهه المقصود، كما يصير من زمرة العبيد المفردين[5].

قد يندهش المتأمل في قوة خلق الصوفي وعبادته وزهده، ولكن سرعان ما تزول تلك الدهشة حينما يتجاوزها إلى ما وراءها من إرادة دافعة مصممة، تزيل العقبات لتصل إلى مقصودها الأسمى وهو الله سبحانه وتعالى، حينها فقط تستقر و تسكن [6]. وهذا الإصرار يسمى الصدق، لذلك يقول صاحب العوارف: «ومتى تمسك المريد بالصدق والإخلاص في توجهه إلى الله عز وجل يمكنه بلوغ مبلغ الرجال»[7]، ويصفها ابن القيم بأنها عزيمة لا يشوبها تردد، فإذا صدقت عزيمة المريد بقي عليه صدق الفعل وهو استفراغ الوسع وبذل الجهد، ومن صدق الله في جميع أموره صنع الله له فوق ما يصنع

---

[1]- ابن تيمية ، الفتاوي، مج 10 في السلوك، ص 616.

[2]- مجدي محمد ابراهيم ، فعل الهمة في المحبة و الارادة الصوفية ،مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط 1 ،2003، ص 79

[3]- المرجع نفسه، ص 13.

[4]- المرجع نفسه، ص 80.

[5]- المرجع نفسه، ص 80.

[6]- عبد الحليم محمود، قضية التصوف، ص 430.

[7]- عبد القاهر بن عبد الله السهروردي، عوارف المعارف ،دار الكتاب العربي، بيروت ، ط2 ،1983 م، ص 532.

لغيره[1]. ويرى القشيري أن صدق التوجه إلى الله هو أساس البناء المعرفي الصحيح، فأول قدم المريد ينبغي أن يكون على الصدق ليصح له البناء على أصل صحيح[2].

**مفهوم الإرادة عند الشيخ الجيلاني:**

لا يختلف الشيخ الجيلاني عن سابقيه من المتصوفة في نظرته للإرادة وأهميتها، وركّز على مفهوم فناء الإرادة وتحدث عن ذلك كثيرا في كتبه ومجالسه، لأن فناء الإرادة عنده شرط أساسي للتحقق بالتوحيد الخالص. أما عن مفهومها فيقول بأنها: «ترك ما جرت عليه العادة، وتحقيقها نهوض القلب في طلب الحق سبحانه وترك ما سواه...وهي بدء طريق كل سالك واسم أول منزلة كل قاصد»[3] .

يبدو من خلال كلام الشيخ عن الإرادة في كتابه الغنية، أنه متأثرا بآراء القشيري، لأن العبارات متشابهة معنا وأسلوبا، إلا أننا نجد في كتابه "فتوح الغيب" تعريفا آخر مختلفا يبين فيه سبب نشوء الإرادة والطريق الموصل إلى اكتسابها، قائلا: «الإرادة تكرار الفكر في الفؤاد بمادة من الحرص فيما جرى فيه من الذكر»[4]. ويقرب لنا معنى هذا التعريف قول ابن مسروق عن كيفية حصول المريد على هذه الإرادة، وذلك بأن يتفكر بقلبه في أحواله وتصرفاته، فيرى أنه يسلك طريق الهاوية، فتسنح له في قلبه إرادة الأوبة والتوقف عن قبيح المعاملة، فيوفقه الحق سبحانه إلى تصحيح هذه العزيمة فتصبح إرادة صادقة يتأهب بها إلى جميل الرجعى[5]، والتي عمادها الذكر الكثير.

ويحدد الشيخ الجيلاني وجهة هذه الإرادة بأنها إرادة وجه الله فحسب[6] ، مستشهدا بقوله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ

---

[1]- ابن القيم الحوزية ، الفوائد ، دار النفائس بيروت ،ط2 ، 1986 م ،ص 241.

[2]- القشيري ، الرسالة القشيرية، ص 180.

[3]- عبد القادر الجيلاني ، الغنية، ج2، ص 405.

[4]- عبد القادر الجيلاني ، فتوح الغيب، ص 124

[5]- سعيد حوى، مذكرات في منازل الصديقين و الربانيين من خلال النصوص و حكم ابن عطاء الله السكندري ، دار السلام، ط4، 1999 م، ص 189

[6]- عبد القادر الجيلاني، الغنية، ج2 ، ص 405

عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ﴾[1]. وهـــــذا ما أيده قول الشيخ أحمد الزروق: «حُدّ التصوف ورُسم وفُـــسر بوجوه تبلغ الألفين، مرجع كلها لصدق التوجه إلى الله تعالى»[2]، وإذا كان المريد صادقا أدركته العناية الإلهية وأخذت بعضديه وأخرجته من مضيق الوحشة والتردد، ولذلك يقول الشيخ الجيلاني: «إذا صدقت في إرادتك أخذ الحق عز وجل بيدك، مشاك في صحبة قدره»[3].

إذا أولى الصوفية اهتماما بليغا بالإرادة، فهذا يعني أن لها علاقة مباشرة بالمعرفة، فماهي علاقة الإرادة بالعرفان؟

**علاقة الإرادة بالمعرفة:** إن الإرادة تبدأ مع صاحبها وتترقى معه, إلى أن يصل السالك إلى حال الفناء فتفنى إرادته في إرادة الله، فالصوفي يسعى إلى التوحيد الخالص الذي يكون فيه استسلامه على تمامه لإرادة الله، فكلما بذل جهدا لترويض نفسه، وكلما عانى من وهج المكابدة التي قال عنها الشيخ الجيلاني أنها تحتاج إلى حبال ورجال، كلما كان مساره صحيحا من أجل أن تفنى إرادته في إرادة الله ليتحقق بالعبودية التامة ويفنى في التوحيد، فإرادة العبد هي العقبة الكؤود التي تعيق السالك من بلوغ القمة، هذه الإرادة التي كانت في بداية الطريق -كما عبّر عنها من ذاقها- أنها لوعة في الفؤاد، لدغة في القلب غرام في الضمير، انزعاج في الباطن، نيران تتأجج في القلوب[4]، هذه الإرادة الدافعة بكل تلك المشاعر إلى قهر رعونات النفس وتهذيبها، تبدأ في اكتساب شيء في نهاية الطريق كلما إقتربت من الله، حتى تفنى في التوحيد، لأن العبد حينها يكون قد عرف الله حق المعرفة، فماذا تكون هي أمام إرادة الله.

ولتجلي صفات الجمال والجلال على قلب العارف يفنى عن كل ما حوله وعن نفسه ويفنى حتى عن فنائه، وهذا كله بتوفيق من الله جل جلاله، فإذا وُجد عند المريد الصدق في الإرادة وفقه الله إلى الرقي بهمته، يقول الإمام القشري: يجب على المريد أن يعرف «أن قيمة كل إنسان

---

[1]- الكهف، الآية: 28

[2]- سعيد حوى ، مذكرات في منازل الصديقين و الربانيين، ص 198

[3]- عبد القادر الجيلاني ، الفتح الرباني و الفيض الرحماني ،ص 263

[4]- إبراهيم بسيوني، الإمام القشيري، ص192.

حسب إرادته فمن كانت همته الدنيا فقيمته خسيسة حقيرة كالدنيا، ومن كانت همته الآخرة فشريف خطره، ومن كانت همته ربانية فهو سيد وقته»[1] وقد قيل أن فكرة الهمة من العلامات الكبرى في العرفان[2] فما مفهوم الهمة؟

وما علاقتها بالإرادة؟ وما صلتها بالمعرفة؟

**مفهوم الهمة:**

**المفهوم اللغوي للـــــهمة:**

الهمة في اللغة ما هم به من أمر بفعل، وتطلق على الهوى أو العزم، والهمة العالية هي العزم القوي[3].

**المفهوم الإصطلاحي للهمة:** يقول عنها الإمام الشعراني: «إن شرط الطريق إلى الله تعالى أن لا يصح لأحد دخولها إلا إذا كان شريف الهمة»[4].

ويقول الجرجاني في تعريفه للهمة: «هي توجيه القلب وقصده بجميع قواه الروحانية إلى جانب الحق لحصول الكمال له أولغيره»[5].

ولما سئل الشيخ الجيلاني عن الهمة قال: «أن يتعرى بنفسه عن حب الدنيا وبروحه عن التعلق بالعقبى وبقلبه عن إرادته وإرادة المولى »[6].

وتبدو الهمة من خلال هذا التعريف أنها من العلامات الكبرى في العرفان، فهمة العارفين تعلو إلى أفق التوحيد الخالص لله، فكل حكمة نورانية تجود بها إشارات الأولياء، إنما هي حكمة أودعها الله قلوب العارفين الذين عقلوا عن الله آياته، فأسرّ لهم من أحكامها فيهم ما لا يمكن إفشاءه لغيرهم لما وجد أن

---

[1]- أبو القاسم القشيري، الرسالة القشيرية، ص237.

[2]- مجدي محمد ابراهيم ،فعل الهمة في المحبة و الارادة الصوفية ، ص 157

[3]- جميل صليبا ، المعجم الفلسفي ،ج2 ،ص 523

[4]- مجدي محمد ابراهيم ، المرجع السابق، الصفحة الاولى قبل التمهيد.

[5]- جميل صليبا ، المرجع السابق، ص 523

[6]- عبد القادر الجيلاني، فتوح الغيب، ص 122

همتهم معلقة به وبأسراره على جميع الأحوال[1].سيتضح مفهوم الهمة أكثر ويزداد فهمنا لماهيتها إذا علمنا علاقتها بالإرادة.

**صلة الهمة بالإرادة:**

إن الهمة العالية هي همة محركة، فهي قوة يحتاجها السالكون، تبعثهم على السير فلا يتوقفون أو يفترون[2]، إن أقرب مفهوم يعبر عن حقيقة الهمة هو أنها طاقة فعالة في الإنسان، ومصدر هذه الطاقة من أصلين: الأول أصل الجبلة والإستعداد، فهناك من يلد ويحمل في مورثاته النفسية قوة وطاقة أكثر من غيره، لكنها تبقى طاقة محضة غير موجهة في ذلك للإنسان، ومن خصائصها أنها تقبل التعلق ومن قبولها للتعلق يظهر دورها.

والأصل الثاني: التربية والاكتساب ، فإذا كان الشخص مزود بقوة داخلية واستعداد لتسلق المعالي، ويجد بيئة تنمي له تلك القوة وتزيدها صقلا وتهذيبا، فتنشأ لديه هذه الهمة المتعالية. وذلك الاكتساب هو الذي يبرز نوعية التوجه وهو ما نعني به الإرادة، فإذا قلنا هاهنا اكتسابا كان معنى ذلك أن هناك إرادة. فللإرادة دور مؤثر في اتجاه الهمة في تعلقاتها، لذلك نسمي توجه الهمة إرادة، وفيه تكون هناك حركة دائمة تترقى بها الهمة وتتواصل في ترقيها حيث تريد، لكأنما كان الأصل في ذلك كله هو التوجه، والتوجه إرادة، فالهمة كالمركب تحمل صاحبها حيث أراد[3].

والهمة تسير حسب تعلقها، تبعا لإرادة صاحبها، فإن علقها بالدنيا نراه يحصِّل الأموال وما والاه من أمور الدنيا، وإن علقها بالله تسقط جميع التعلقات الأخرى، وتصير همومه هما واحدا معلقا على خالقه، يمكنه من شهود المنن في طريق العرفان، فتعلق الهمة بالله تعالى توحّد الهموم جميعا في هم واحد لا يقبل التجزؤ والانقسام، وهذا هو التوحيد بعينه وهـــــو قمة العرفان[4].

إن من ثمار العلم انبعاث التوبة والإرادة والهمة التي تعتبر المداخل الصحيحة لسلوك طريق

---

[1]- مجدي محمد ابراهيم ، المرجع السابق، ص 96.

[2]- جمال ماضي ،فقه السالكين، دار التوزيع و النشر الإسلامية ،ط1، 2006 م ،ص 28.

[3]- مجدي محمد إبراهيم، المرجع السابق، ص 55.

[4]- المرجع نفسه، ص 56.

العرفان،ولذلك نجد الشيخ الجلاني قد أولى اهتماما بالغا بالعلم، مدركا لقوله تعالى: ﴿ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [1] ويقدم العلم أولا ثم العمل ثانيا، فلا يقبل تعبدا بلا علم و لا زهدا بغير علم فيقول: «ويلك أنت تعبد الله بغير علم، ذلك حجاب في حجاب مقت في مقت...ما وصل من وصل إلا بالعلم»[2]. وهذا الاهتمام بالعلم، وإن بدا واضحا، في منهج الجيلاني إلا أننا نجد اهتمامه بالعمل في كثير من آرائه أكثر وضوحا، فما هي نظرة الشيخ الجيلاني للعمل الذي يُعد المرحلة الموالية للعلم وأحد أعمدة منهجه الصوفي؟

## 2- مرحلة العمل:

### أ-العمل عند الشيخ الجيلاني:

لا يفصل الشيخ الجيلاني العلم عن العمل وإن بدا أنه يقدم العلم، فلأنه بمثابة المصباح الذي ينير طريق العمل، وإلا فلا خير يرجى من علم بلا عمل. والعمل عند الشيخ الجيلاني ليس عمل القالب فقط، بل عمل القلب هو الأساس الذي ينبني عليه الأمر، وشرطه الأساسي أن يكون موافقا للكتاب والسنة، وإلا فلا فلاح[3] . فالشيخ الجيلاني خاصة والصوفية عموما يختلف العمل عندهم عن غيرهم من حيث أنهم لا يعتبرون بعمل الظاهر فقط، بل يركزون على عمل القلب لأن به تتحول صورة الشيء إلى حقيقة وواقع، وتفتح آفاق إدراكية جديدة، يقول الشيخ الجيلاني: "لا تنظر إلى عملك، بل تكون جوارحك تتحرك بالعمل وقلبك مع المستعمِل، فإذا تم لك هذا صار لقلبك عيون تنظر بها، صار المعنى صورة، الغيب حاضرا، الخبر معاينة[4]. وهذا ما يوضحه طه عبد الرحمان بقوله أن الممارس يزاول العمل في إشتغاله بالفرائض، وقد يزيد على ذلك درجة فيقوم بالنوافل ويستمر في مزاولة العمل، حتى تنعكس آثار هذا العمل بواسطة الجوارح على وجدانه، فينتقل به الحال هنا إلى أحوال قلبية من أنس وسكينة، ويتخلص من الشعور بالقهر في واجب الأعمال فيواصل إلى أن يصل إلى حالة من المحبة للمعبود فينشغل

---

[1]- سورة الزمر، الآية: 9.

[2]-عبد القادر الجيلاني، الفتح الرباني في فيض الرحماني، ص 111.

[3]- المصدر نفسه، ص 135.

[4]- المصدر نفسه،ص 121.

به عمن سواه[1].

إن ثمرة تجريد القلب عما سوى الله تعالى تجعل صاحبه يستنبط من كلام الله تعالى عجائب الأسرار، وله بكل مرة في التلاوة مطلع جديد وله بكل فهم عمل جديد، ففهمهم يدعو إلى العمل وعملهم يجلب صفاء الفهم ودقيق النظر في معاني الخطاب[2]. إن إدراك العمل الشرعي يفتح آفاقا لا يقوى عليها سواه، كما أنه يمتلك أسباب السداد في ذاته، فالعمل الشرعي أقدر من غيره على الأخذ بأسباب التغيير الفعلي للسلوك، ويكون تأثيره أقوى إذا تعدى خيره إلى الغير.

ويشترط السهروردي ــوهو من تلامذة الجيلانيــ على السالك أن يتعدى نفع عمله إلى غيره فيقول: «وعمله يجب أن يعود نفعه ليس على نفسه فقط بل على المسلمين»[3]، ويقول الشيخ الجيلاني في هذا المعنى: «يا عالم إن أردت خير الدين والآخرة فاعمل بعلمك وعلم الناس»[4].

إن العمل بالعلم يوسع نطاق الإدراك، لأنه تجربة تكسب صاحبها المهارة في تحسين المدركات، فالعمل إذا تحول إلى عبادة، يتميز عن غيره من الأعمال بالتوسيع في الإدراك لدى العابد الذي تنفتح بصيرته على منافذ ومشارف من المدركات، تزيد النظر اتقادا والفكر نفاذا[5]، وفي هذا المعنى يقول الشيخ محمد الغزالي: «والعلم الذي يثمر العمل يكسب صاحبه ملكة تنير له الطريق في دروب الحياة المختلفة»[6].

إن الشيخ الجيلاني في آرائه كلها يدعو إلى التمسك الشديد بالكتاب والسنة، فالتارك للعمل الشرعي لا ثقة بعلمه مهما ادعى من معرفة، ولن يصل إلى ما وصل إليه العاملون إذا لم يعمل وفق الشرع، ويقرر ذلك الشيخ الجيلاني: «لا يبلغ القلب إلى هذه المنزلة حتى يتحقق له العمل بالكتاب

---

[1]- طه عبد الرحمان ، العمل الديني و تجديد العقل، ص 126.

[2]- عائشة يوسف المناعي ، أبو حفص عمر السهروردي، ص 272.

[3]- المرجع نفسه، ص 272.

[4]- عبد القادر الجيلاني ، الفتح الرباني في فيض الرحماني، ص 111.

[5]- طه عبد الرحمان، المرجع السابق، ص 64.

[6]- محمد الغزالي ، جدد حياتك، ص 57.

والسنة»[1].

إن المتغلغل في العمل الشرعي قلما تختلط الأمور على فطنته، لأن ذلك يحفظه من الانحراف في الفكر والسلوك[2] قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ ﴾[3] ولهذا يقول الشيخ الجيلاني: «إذا عملت بظاهر الحكم أدناك العمل إلى العلم بالله عزوجل»[4]. وفي رسالة الإمام الغزالي: "أيها الولد المحب" مجموعة نصائح يبين فيها شأن العمل، منها قوله: "لو قرأت العلم مائة سنة وجمعت ألف كتاب لا تكون مستعدا لرحمة الله تعالى إلا بالعمل، لقوله تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا ﴾[5]، قال علي ﷺ: «من ظن أنه بدون الجهد يصل يصل فهو مستغن» [6] ويقول في النصيحة الحادي عشر: «أيها الولد لو كان العلم المجرد كافيا لك ولا تحتاج إلى عمل سواه، لكان نداء: هل من سائل؟ هل من مستغفر؟ هل من تائب؟ ضائعا بلا فائدة»[7]. فائدة»[7].

و للعمل شأن ومكانة في القرآن الكريم، وما أكثر الآيات المشيدة له، فهو عمدة الطريق إلى الله، وبه يتمايز الناس في الدنيا والآخرة. قال الله تعالى: ﴿ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[8]، ثم قوله تعالى: ﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾[9] و لذلك أولاه العلماء والعارفين والمربين أهمية كبيرة كما مر معنا من أقوال الشيخ الجيلاني وغيره من مشايخ العلم والتربية.

---

[1]- عبد القادر الجيلاني ، المصدر السابق، ص 135.

[2]- محمد الغزالي، جدد حياتك، ص 58 ، 59.

[3]- الأنفال الآية 29.

[4]- عبد القادر الجيلاني ، الفتح الرباني و الفيض الرحماني، ص 195.

[5]-سورة الكهف: الآية: 110.

[6]- ابوحامد الغزالي،ايها الولد المحب، مؤسسة الكتب الثقافية، ط1، 1990م، ص 11.

[7]- المرجع نفسه، ص 15.

[8]- سورة الزمر، الآية: 9.

[9]- سورة الزلزلة، الآيتين: 7و8.

إذا كان للعمل كل هذه الإمتيازات العملاقة، إذ هو التجربة وهو الخبرة بل يكاد يكون العمل روحا، إذا بُعث في العقل يُنار بالفهم وزيادة الإدراك، وإذا بُعث في القلب يَحي وتُزال عنه الحجب، هذا المعنى كله يتمثل في أهم مظهر اشتهر به الصوفية وهو المجاهدة، فما مضمونها وماهي أسسها عند شيخنا الجيلاني؟.

**ب- مفهوم المجاهدة عند الشيخ الجيلاني:**

إن مضمون المجاهدة عند الشيخ الجيلاني هي مخالفة الهوى، وفطم النفس عن عاداتها وشهواتها وإلجامها بلجام التقوى والخوف من الله عزوجل، ولابد من وجود المراقبة التي هي علم العبد بإطلاع الرب سبحانه وتعالى عليه لكي تتم المجاهدة وتستمر [1].

إن الشيخ الجيلاني يريد إحكام البناء في كل الأمور، ويقصد بذلك أن يحصّل المريد العلم الكافي خاصة في أمر المجاهدة، ففي نظر الجيلاني لا تتم المجاهدة إلا بمعرفة أربعة أمور هي:

1- **معرفة الله تعالى:** ويقصد به التصحيح والاعتقاد عن الله عز وجل وصفاته وأسمائه كما جاء في القرآن الكريم وسنة نبيهﷺ.

2- **معرفة عدو الله إبليس:** فمن عرف القوم أمن شرهم، فله تأثير كبير لإفساد الأعمال واستدراج العبد إلى الهلاك، فعليه أن يعرفه معرفة جيدة ليأمن مكره.

3- **معرفة نفسه الأمارة بالسوء:** وهذه أيضا عدوة صاحبها، ولا يتسنى له ذلك إلا بعد فهمها ومعرفة صفاتها وإلى ما تدعو إليه، فهي ألدّ عداوة من إبليس، ولا تأمر بخير أبدا، وإن أمرت فلنيل حظوظها. فبمعرفتها يمكن له أن يتقوَّى عليها ويسوقها بدل أن تسوقه[2].

4- **معرفة العمل لله عزوجل:** وهو العلم بالأحكام الشرعية، ويعلم أن ترك المعاصي الظاهرة لا يكفي لمغفرة الله له، بل أن يترك المعاصي الباطنة التي هي أمهات الذنوب وأصولها، وليكن همه طلب النية الصادقة وعزمه طلب الإخلاص والتوحيد في أقواله وأفعاله وأحواله كلها عن أخذه

[1] - عبد القادر الجيلاني، الغنية لطالبي الحق الرباني ،ج2 ، ص 454

[2] - المصدر نفسه، ص 454 – 455.

الطاعة وإعراضه عن المعصية. وبهذه الخصال الأربعة يُورّث العلم والفقه، ويدخل ميدان السالكين ليأخذ بالجادة في المجاهدة، ويتحمل آلامها وبلاءها ليكون من العارفين بإذن الله، وفي كل هذا ينبغي عليه الاعتماد على توفيق الله له، فيستعين به في كل حركة أو نفس ولا يريد بذلك كله أحد غير الله عز وجل، فإن فعل: أرشده الله ووفقه و أحبه و جنبه مكارهه، وستره بستر الأصفياء العلماء بالله[1]. والمجاهدة بهذه الأهمية لها أعمدة تقف عليها، فما هي أسس المجاهدة عند شيخنا؟

**أسس المجاهدة عند الجيلاني:**

إذا أردنا معرفة منهج الشيخ الجيلاني من خلال العماد الأكبر فيه وهو المجاهدة، فلنتعرف على موقفه من النفس، ثم من الدنيا والخلق والآخرة.

**موقف الجيلاني من النفس:** لا يختلف الجيلاني عن غيره من الصوفية في موقفه من النفس الأمارة بالسوء، إذ يعتبرها حجاب بين العبد و ربه، كما مر معنا، فهو يحذر منها لكونها طمّاعة شرهة مُدعية خارجة عن طاعة الله سبحانه، فهو يرى أن صدقها كذب ودعواها غرور، ليس لها رجوع إلى خير، وهي رأس البلاء وخزانة إبليس ومأوى كل سوء، ولا توصف بشيء إلا وهي أكثر مما توصف، فهي صديقة إبليس ومستراحه، وعلى العبد محاسبتها ومراقبتها ومخالفتها ومجاهدتها في جميع ما تدعو إليه وتدخل فيه[2]. يقول الشيخ في ذلك: «النفس أمارة بالسوء، هذه جبلتها...جاهدها في جميع الأحوال...ذوبها بالمجاهدة، فإنها إذا أُذيبت وفنيت، اطمأنت إلى القلب، ثم يطمأن القلب إلى السر[*] ثم يطمأن السر إلى الحق عز وجل، قصّر أملها وقد أطاعتك إلى ما تريد منها»[3]. ويذكر في المقالة العاشرة «النفس وأحوالها» من كتابه فتوح الغيب قائلا:" والنفس ضد الله وعدوه، وللنفس إدعاء وتمني وشهوة ولذة، فإذا وافقتَ الحق عزوجل في مخالفة النفس وعدوانها، كنت لله خصما على نفسك، فالعبادة كل

---

[1]- عبد القادر الجيلاني، الغنية لطالبي الحق الرباني ،ج2 ، ص 456.

[2]- المصدر نفسه، ص 458.

[*]—السر: لطيفة مودعة في القلب كالروح في البدن، وهو محل المشاهدة، كما أن الروح محل المحبة والقلب محل المعرفة: انظر عبد المنعم الحفني، المعجم الصوفي، ، ص123.

[3]- عبد القادر الجيلاني ، الفتح الرباني و الفيض الرحماني، ص 139.

العبادة في مخالفة نفسك، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾"[1][2].

ويذكر الشيخ الجيلاني الحكاية المشهورة عن أبي يزيد البسطامي رحمه الله، لما رأى رب العزة في المنام فقال له: «كيف الطريق إليك، قال أترك نفسك وتعال، فقال: فانسلخت من نفسي كما تنسلخ الحية من جلدها فإذا الخير كله في معاداتها»[3].

والملاحظ في وعظ الشيخ الجيلاني لتلاميذه أنه يستخدم الأمثلة من الواقع للتوضيح وللإثارة في نفس الوقت، يوضح لهم المعنى و يثير فيهم الغيرة والعزم على تأديب نفوسهم بضرب الأمثلة بالحيوانات الشرسة التي إذا عُلمت وأُدبت تَركت شهواتها وطبعها، فالكلب الذي يُعلم حفظ الصيد فإنه يتعلم ذلك و يترك شهوته، فنفس الإنسان أولى بالتعلم،، يقول: «علمها و فهمها حتى لا تأكل دينك وتمزقك وتخون في أمانات الحق عز وجل المودعة عندها»[4]. إن الشيخ أكثر في مواعظه ومقالاته من التحذير من النفس، وإن أثر كلامه ليصل إلى غيره وما ذاك إلا لحرارة صدقه دافعا السالك إلى مجاهدة نفسه مشجعا له بأن طبعها يتغير وتصير سخية مطواعة إلى حيث يريد[5].

ويوصي بتغذيتها الحلال حتى لا تبتر وتشمخ وتسئ الآداب[6]. ويدعو إلى الترفع عن البهيمية والتطلع إلى السمو الروحي قائلا: "لا يكن همك ما تأكل وما تشرب وما تلبس وما تنكح وما تسكن وما تجمع، كل هذا هم النفس والطمع، فأين هم القلب والسر وهو طلب الحق عزوجل، وينصح بأن لا يتأخر العبد في مجاهدة نفسه قبل أن يُفاجأ بالموت، ويقول: «موِّتها بالصبر والمخالفة، فعن قريب تحمد عاقبة ذلك، صبرك يفنى وجزاؤه لا يفنى»[7]. ويغري السالكين بما وراء هذا الجهاد من نعيم الفناء عن كل ما سوى الله قائلا: «ابذل كلك واترك شهواتك ولذاتك، وافن فيه عنك، ودع الجنة وما فيها

---

[1]- سورة ص، الآية: 26.

[2]- عبد القادر الجيلاني، فتوح الغيب، ص24.

[3]- عبد القادر الجيلاني، فتوح الغيب، ص24.

[4]- عبد القادر الجيلاني، الفتح الرباني، ص 97.

[5]- نفس المصدر ونفس الصفحة.

[6]- محمد عبد الرحيم، العارف بالله عبد القادر الجيلاني، ص 76.

[7]- عبد القادر الجيلاني، المصدر السابق، ص .141

واتركها، ودع النفس والهوى والطبع والشهوات الدنيوية والأخروية، ودِّع الكل واتركهم وراء ظهر قلبك ثم ادخل، فإنك ترى مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر». [1]

ونجد الجيلاني في ذلك يتبع سابقيه من مشايخ الصوفية، فالحكيم الترمذي قد شدد التحذير من حظوظ النفس، فلا يكاد يأمن جانب النفس مهما راضها، ويرى أنه مادامت الشهوات حية والهوى قائما تظل النفس تحت المراقبة. ولذلك يقول الشيخ الجيلاني بمعنى آخر: «كلما جاهدت نفسك وغلبتها وقتلتها بسيف المخالفة أحياها الله ونازعتك وطلبت منك الشهوات...لتعود إلى المجاهدة... فيكتب لك ثوابا دائما... »[2] إنه يقول بأن الإستمرار في المجاهدة لا ينتهي حتى يلقى العبد ربه وسيفه مسلول ملطخ بدم النفس والهوى[3].

إن كانت مقاومة أهواء النفس تحتاج إلى رجال وحبال كما قال الشيخ، فإن حسن التوكل على الله مطلوب بشدة حتى تثمر هذه المجاهدة، ويصل صاحبها إلى مبتغاه فالسالك عليه الجهد وبذل غاية الوسع، وأن يصدق في هذا البذل حتى يصبح أهلا لأن يليه الله بهدايته، والنتيجة من الله سبحانه وتعالى، فكما قال الحكيم الترمذي: «على السالك أن يجاهد نفسه بقوة الله لا بقوته»[4].

يقول الشيخ الجيلاني في هذا: «أحكم أساس أعمالك بالتوحيد والإخلاص، ثم ابن الأعمال بحول الله تعالى وقوته لا بحولك و قوتك»[5]، ولا ينفرد الجيلاني بهذا الموقف من النفس بل يتفق مع الصوفية في ذلك، فالمنهج الصوفي عموما يعتمد على المجاهدة، وبما أن النفس لا تنقاد بسهولة إلى الطاعة، بل تحتاج إلى مجاهدة وترويض وصبر حتى تلتزم بأمر الله، لقوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [6] ولذلك يرى الإمام القشيري أن من من الواجب مخالفة النفس وعدم تركها على هواها ليتمكن المرء من الإمساك بعروة العبادة فيقول: «ثم

---

[1]- المصدر نفسه، ص 228.

[2]- عبد القادر الجيلاني، فتوح الغيب ، ص 143 ، 144.

[3]- المصدر نفسه، ص 143 ، 144.

[4]- عبد الفتاح عبد الله بركة ، الحكيم الترمذي و نظريته في الولاية ،ص 213 ، 214 .

[5]- عبد القادر الجيلاني ، الفتح الرباني و الفيض الرحماني ،ص 39.

[6]-سورة الشمس، الآيات: 7 ، 10.

اعلم أن مخالفة النفس رأس العبادة»[1]. وقال سهل بن عبد الله: «ما عُبد الله بشيء مثل مخالفة النفس والهوى»[2].

إن جوهر المنهج الجيلاني في بلوغ العرفان، يعتمد كثيرا على إخراج الشركاء من القلب، وهم الدنيا والخلق والآخرة،كمرحلة أولى وهي التخلق، ثم يغرس التوحيد، ومبدأه في ذلك التفويض والموافقة مع التبرّي من الحول والقوة.

فقد كان الشيخ عدي بن مسافر المعاصر للشيخ الجيلاني يقول: «كان الشيخ عبد القادر رضي الله عنه، طريقته الذبول تحت مجاري الأقدار بموافقة القلب والروح...والإنسلاخ من صفات النفس مع الغيبة عن رؤية النفع والضر»[3] وهذه الغيبة عن رؤية النفع والضر من الخلق والدنيا والآخرة، فإذا تفرغ القلب من هؤلاء ومن هوى النفس أصبح محلا صالحا ليمتلئ بالتوحيد الخالص، يقول الشيخ الجيلاني في ذلك: «لا تلتفت إلى الخلق ولا إلى الدنيا ولا إلى ما سوى الحق عزوجل، حتى تأتي إلى باب الحق عز وجل بأقدام سرك وصحة زهدك فيما سواه، عريانا عن الكل»[4].

ولننظر إلى هذا القول للشيخ الجيلاني لتتضح الفكرة جليا: «ما فيكم من تحققت له العبودية إلا من شاء الله تعالى، آحادا، أفرادا، هذا يحب الدنيا ويحب دوامها، يخاف زوالها، وهذا يعبد الخلق يخاف منهم ويرجوهم، وهذا يعبد الجنة ويرجو نعيمها ولا يرجو خالقها، وهذا يعبد النار يخاف منها ولا يخاف من خالقها، ما الخلق وما الجنة وما النار ومن سواه؟ قال الله عز وجل: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾[5] العارفون العالمون به عبدوه له لا لغيره، أعطوا الربوبية والعبودية حقها، عبدوه إمتثال أمره ومحبته له لا لمعنى آخر»[6]. ويزيد كلامه توضيحا بقوله: "عليك بالخلوة عن النفس، ثم بالخلوة عن عن الخلق، ثم بالخلوة عن الدنيا، ثم بالخلوة عن الآخرة، ثم بالخلوة عما سوى المولى. إذا أردت أن تخلو

---

[1]- القشري، الرسالة القشرية، ص 188.

[2]- المرجع نفسه، ص 189.

[3]- عبد الوهاب الشعراني، الطبقات الكبرى، ج1، ص 110.

[4]- عبد القادر الجيلاني، الفتح الرباني، ص82.

[5]- سورة البينة، الآية 05.

[6]- عبد القادر الجيلاني ، المصدر نفسه، ص110.

مع المولى فاخل عن وجودك وتدبرك وهذيانك"[1]، وشيخنا في نهجه يجعل كلامه دائما قابلا للتطبيق، فيعطي العلم ثم يبين أهمية ما يقول وخطورته ويضع للمريد علامة واضحة يقيس بها مدى مطابقة علمه لعمله، فيقول: "يا غلام ما صحت إرادتك للحق عز وجل ولا أنت مريد له، لأن كل من يدعي إرادة الحق تعالى ويطلب غيره فقد بطلت دعواه، مريدو الدنيا فيهم كثرة ومريدو الآخرة فيهم قلة ومريدو الحق تعالى الصادقون في إرادته أقل من كل قليل، وهم في القلة والعدم كالكبريت الأحمر"[2] .وهذا ما كان يدعو له و يغرسه في قلوب الناس، خاصة من كان يريد سلوك الطريق بعزم صادق.

وسنستعرض الآن منهجه في التخلية وذلك كالأتي:

**أولا: تخلية القلب من الخلق:** بما أن التطلع إلى ما في يد الغير والثقة في قدراتهم وعطاءاتهم يفسد القلب ويوقع في الشرك، فإن الشيخ كان كثيرا ما يعضهم ويبين لهم أن ذلك شرك، وعليهم تجنبه، ويبين ويفصل لهم في ذلك قائلا: «افن عن الخلق بإذن الله تعالى وعن هواك بأمر الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[3]...فعلامة فناءك عن خلق الله تعالى إنقطاعك عنهم وعن التردد إليهم واليأس مما في أيديهم»[4]. ويقول ابن تيمية في شرح ذلك: «أي افن عن عبادة الخلق والتوكل عليهم بعبادة الله والتوكل عليه، فلا تطعهم في معصية الله تعالى، ولا تتعلق بهم في جلب منفعة ولا دفع مضرة... فإذا كان القلب لا يرجوهم ولا يخافهم، لم يتردد إليهم لطلب شيء منهم»[5].

ويقول الشيخ الجيلاني: «من لم يكن قلبه مجردا عن الخلق والأسباب لا يقدر يسلك جادة النبيين والصالحين»[6]. وهذا التجرد لا يعني عدم التعامل معهم وعداوتهم، بل هو تزكية وتطهير للقلب حتى تصبح حياة السالك كلها لله، وحينها يعود للخلق فيتعامل معهم بالله حسب الأمر والحكم، فإذا صح توحيد العبد وخرج خبث الشرك من قلبه يعود إليهم ويخالطهم وينفعهم بما عنده من العلم ويدلهم على

---

[1]- المصدر نفسه، ص 82.

[2]- عبد القادر الجيلاني، الفتح الرباني، ص 53.

[3]- سورة المائدة، الآية: 23.

[4]- عبد القادر الجيلاني، فتوح الغيب، ص 12.

[5]-أحمد بن تيمية ، مجموع الفتاوي ، مجلد 10 ، علم السلوك ص 490 – 491.

[6]- عبد القادر الجيلاني ، المصدر السابق، ص 83.

باب ربهم عز وجل". فإذا تم للسالك تخلية قلبه من الخلق، فقد استعد لتحليته بالأنوار الربانية يقول الشيخ في ذلك: «فإذا تحقق وصول قلبك وسرك ودخلا عليه، وقربك وأدناك وأحياك وولاك على القلوب وأمّرك عليها، وجعلك طبيبا لها، فحينئذ التفت إلى الخلق والدنيا، فيكون التفاتك إليهم نعمة في حقهم، وأخدك للدنيا من أيديهم وردها على فقرائهم واستفائك لقسمك منها عبادة وطاعة وسلامة. من أخذ الدنيا على هذه الصفة لا يضره بل يسلم منها»[1].

ويبين له علامة التوفيق ويبشره بها قائلا: «إذا خرب ما بينك وبين الخلق وعمر ما بينك وبينه فقد إختارك فلا تكره خيرته، من صبر مع الحق عزوجل رأى عجائب من ألطافه»[2].

ومع هذه الغربة عن الخلق، عليه أن يداريهم ويعطيهم من عطاء ربه عز وجل، ويتكرم عليهم بشيء من كرامة الله له، يترفق بهم ويتلطف ويلين جانبه لهم فهذا خلق عظيم [3].

فقد كان النبي ﷺ كثير المدارات للخلق، وكان من حسن مداراته أن لا يذم طعاما ولا ينهر خادما[4]، ولا يقف في هذه المعاني الأخلاقية العالية على حد الاعتدال إلا صوفيا قاهرا للنفس، عالما بأخلاقها وطباعها، سائسا لها بوفور العلم، حتى يقف في ذلك على صراط الاعتدال بين الإفراط والتفريط، أما عامة الناس أو المريديين المبتدئين فليس لهم ذلك[5].

**ثانيا: تخلية القلب عن الدنيا:** المؤمن يعلم أن الدنيا لو كانت لها قيمة جناح بعوضة لما سقى الله منها الكافر شربة ماء، فالله عزوجل يعلم حقيقتها ولذلك زهّد الخلق فيها وحذرهم قائلا: ﴿**قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ**﴾[6].

قال أبو سعيد الخراز: «وأعلى درجات الذين زهدوا في الدنيا هم الذين وافقوا الله تعالى في محبته،

---

[1]- عبد القادر الجيلاني ، الفتح الرباني، ص 82

[2]- المصدر نفسه،ص 143

[3]- المصدر نفسه،ص 145

[4]- عائشة يوسف المناعي، أبو حفص عمر السهروردي، ص 226

[5]-المرجع نفسه، ص 228

[6]- النساء الآية 77

فكانوا عبيدا عقلاء عن الله عز وجل أكياسا محبين سمعوا الله عز وجل ذم الدنيا، ووضع من قدرها، و لم يرضاها دارا لأوليائه، فاستحيوا من الله عزوجل أن يراهم راكنين إلى شيء لم يرضيه، وجعلوا ذلك على أنفسهم فرضا و لم يبتغوا عليه من الله عز وجل جزاءً ولكن وافقوا الله في محبته كرما والله لا يضيع أجر من أحسن عملا»[1] والدنيا لا تصفى لأحد كما يقول ابن عطاء الله: «لا يستغرب وقوع الأكدار ما دام في هذه الدار، فإنها ما أبرزت إلا ما هو مستحق وصفها وواجب نعتها»[2].

وأحسن وصف للدنيا ما قاله الجنيد: «لست أستبشع ما يرد علي من العالم لأني قد أصّلت أصلا وهو أن الدنيا دار همٍ وغم وبلاء وفتنة...ومن حكمه أن يتلقاني بكل ما أكره، فإن تلقاني بكل ما أحب فهو فضل، وإلا فالأصل هو الأول »[3].

ويبين الشيخ الجيلاني كيفية التعامل مع الدنيا قائلا: «اجعل آخرتك رأس مالك ودنياك ربحه. وأصرف زمانك أولا في تحصيل آخرتك، ثم إن فضُل من زمانك فأصرفه في دنياك وفي طلب معاشك...إذا أطعت الله بزهدك في الدنيا أو طلبك دار الآخرة وهي الجنة وجوار الله عز وجل وخدمتك الدنيا، فيؤتيك قسمك الذي قُدر لك منها»[4] وشيخنا تعلم أن الأمر ليس بالهيِّن، ويعلم أنه لا لا يتم إلا برحمة من الله وعون منه تعالى، فلما يفرغ قلب السالك من الدنيا، يُقبل على الآخرة، ناظرا إليها، عاملا من أجلها لذلك يقول له: «يا غلام إن قدرت أن تتفرغ من هموم الدنيا فأفعل، و إلا فهرول بقلبك إلى الحق عزوجل وتعلق بذيل رحمته حتى يخرج هم الدنيا من قلبك فهو القادر على كل شيء، العالمُ بكل شيء، بيده كل شيء، وسله أن يطهّر قلبك من غيره»[5] ثم ينتقل المريد من مرحلة تخلية القلب من الدنيا إلى تخليته من الآخرة، فكيف يكون له ذلك؟ وهل العمل من أجل الآخرة رغبة ورهبة يعارض التوحيد الخالص؟.

**ثالثا: تخلية القلب من الآخرة:** يتدرج الشيخ مع مريده في مراحل التخلية والتحلية هذه إلى أن

---

[1]- مجدي محمد إبراهيم، التصوف السني حال الفناء بين الجنيد و الغزالي، ص 96.

[2]- المرجع نفسه، ص 97.

[3]- المرجع نفسه و الصفحة.

[4]- عبد القادر الجيلاني، فتوح الغيب، ص84.

[5]- عبد القادر الجيلاني، الفتح الرباني و الفيض الرحماني، ص 39.

يصل به إلى مرحلة النهاية في الترقي نحو التوحيد الخالص، فيعبد الله دون طلب لغرض في الدنيا ولا عوض في الآخرة. يعبده مخلصا له الدين، فيعيب الشيخ على من يعبد الله رغبة في الجنة لا في خالقها أو رهبة من النار لا من خالقها فيقول لهم...«ما الخلق وما الجنة وما النار ومن سواه... العارفون العالمون به عبدوه له لا لغيره، أعطوا الربوبية والعبودية حقها، عبدوه إمتثال أمره و محبة له لا لمعنى آخر"[1]، وهو بهذا يدعوهم إلى ترك التعلق بالدنيا والآخرة، والخلق والتعلق فقط بالحق عز وجل، كما يوجههم إلى اللجوء إلى الله بالتضرع والدعاء بأن يمكنهم من توحيده حق التوحيد، وإعمار قلوبهم بالحب له و العمل له وحده وأن يهجروا كل ما سواه[2].

إن تخلية القلب من الآخرة تتم بمواصلة السالك في الترقي في صعوده إلى القمة، حتى يبرق له نور الحق عز وجل، فيترك الآخرة ويذهب إلى الله وحده حرا وقد تخلص من أسر الدنيا والآخرة. فيتحقق بمعرفة الله وقد فنى عما سواه[3]. فالعارف المحب لا يحب لا الدنيا ولا الآخرة ولا ما سوى الحق عز وجل[4]. ويؤكد الشيخ بأن: «شرط المحبة أن لا يكون لك إرادة مع محبوبك وأن لا تشتغل عنه بدنيا ولا بآخرة ولا ما سواه، فمحبة الله تعالى ليست هيّنة حتى يدّعيها كل أحد، كم من يدّعيها وهي بعيدة عنه وكم من لا يدّعيها وهي عنده»[5].

**تأصيل فكرة الزهد في الآخرة:** يقول ابن عطاء الله السكندري: "متى طلبت عوضا على عمل طُولبت بوجود الصدق فيه، ويكفي المريد وجدان السلامة "[6] هذا كلام دقيق يبين فيه أن من تقرب إلى الله بطاعة ما، وسأله "العوض" عنها فإن عليه أن يعلم أنه غير مخلص لله فيها، وإذا أثبت أنه غير مخلص فيها فأنى له أن يطلب منه عوضا عليها، فلا يمكن أن يجتمع الصدق في الإخلاص مع طلب العوض، واختيار ابن عطاء الله لكلمة "عوض" بدل "ثواب" لينبه لما تتضمنه كلمة عوض من القصد

---

[1]- عبد القادر الجيلاني ، الفتح الرباني و الفيض الرحماني ، ص 110.

[2]- المصدر نفسه، ص 230.

[3]- المصدر نفسه، ص 143.

[4]- عبد القادر الجيلاني، فتوح الغيب، ص 70.

[5]- عبد القادر الجيلاني، المصدر السابق، ص 79.

[6]- محمد سعيد رمضان البوطي، الحكم العطائية، شرح و تحليل، دار الفكر المعاصر بيروت، دار الفكر، دمشق، ط1، 2002 م، ج3، ص 349.

الكامل لطلبه والعمل من أجله[1]، بينما كلمة "ثواب" يعبر عنها البيان الإلهي عن الإكرام الذي أعده لعباده الطائعين منحة منه وتفضلا وإحسانا، ومن ثم فليس فيه أثرا لمعنى العوض أو البدل عن الشيء، وإن سماه الله أجرا، أوجزاءً، فإنما هي تسمية من طرف واحد أي من قبل الله عز وجل، تحببا لعباده ومبالغة في الإحسان إليهم والثناء على قرباتهم وطاعاتهم، وعليه فلا يُفهم من ذلك على أنها أجر وعوض حقيقي استحقه على عمله، بل يجب أن يعلم أنه لا يستحق على طاعاته مهما كثرت شيئا، ولكن الله يمتن عليه بفضله[2]. وفي هذا قال الرسول ﷺ: «لن يُدخِل أحدكم عمله الجنة، قالوا: ولا أنت يارسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه بفضل ورحمة»[3]. فهذا الحديث يوجز كل ما سبق وما سيأتي من تأكيد المعنى، فقوله: "ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه بفضل ورحمة" وهو سيد العابدين، حتى لا يخطر في بال عابد زاهد رباني أنه يستحق العوض لما وصل إليه من قرب الله. وأيضا الآيات الصريحة في ذلك ففي قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[4] فكلمة "أحد" "أحد" تشمل أي شيء ما سوى الله، سواء كان ماديا أومعنويا من السّوى، ولذلك فلا فرق بين أن يكون الشيء الذي تقصده من عبادتك، مالا أوصحة أومكانة أوجنة تنالها[5].

فكل مثوبة يطلبها العبد من الله على وجه العوض على الطاعات، هي من الشرك الخفي الذي حذر الله منه، والذي قد يكون السبب في إحباط الأعمال، أما طلب المثوبة الذي لا يخل بالإخلاص، بل يعتبر من أبرز مقتضيات العبودية لله هو أن يطلب العبد المثوبة وهو موقن أنه ليس أهلا لها، وإنما طلبها على وجه إحسان الله وتفضله بها عليه، فشأنه شأن من يعلن عن افتقاره إلى كـــرم الله وجودِه[6].

ولذلك فإن ما أشار إليه العارفون –ممن لا ينسبون إلى الجهالة ولا ينطقون عن الضلالة– مما

---

[1]– المرجع نفسه، ص 351.

[2]– محمد سعيد رمضان البوطي، الحكم العطائية، شرح و تحليل، ج3، ص 352.

[3]– أبو الحسن مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم،،كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: لن يدخل احد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى، رقم الحديث:2816،ص1121

[4]– الكهف الآية 110

[5]– محمد سعيد رمضان البوطي، المرجع السابق، ص 349

[6]– المرجع نفسه، ص 355

تضمنته المقولة المشهورة عن أحدهم، أنه لا يعبد الله طلبا للجنة ولا خوفا من النار بل لما هو أهلا له،فإنهم لم يقصدوا بذلك إحتقارا لنعيم الجنة ولا إستخفافا بعذاب النار، فلا يعقل أن يكون هذا منهم وهم العلماء العاملون المحققون الصادقون المصدقون»[1]، لكن فقهوا حقيقة العبودية وفنوا في حب الله فعبدوه حقا وأطاعوه مرضاة له.

إن مرحلة العمل المتمثلة أساسا في المجاهدة بعنصريها التخلية والتحلية، مرحلة صعبة، يحتاج فيها المريد إلى الارتكاز على أركان ضرورية يطلق عليها الصوفية أركان المجاهدة، وهناك من يطلق عليها أركان التصوف والتي هي: الشيخ والذكر والفكر والخلوة، فلنتعرف على هذه الأركان وعلى دورها في رحلة التصوف؟

## 1-ركن الشيخ:

التصوف في نظر الشيخ الجيلاني لا يؤخذ بالقيل والقال، ولكنه إتباع وإكتساب، فما أكثر ما تتبدل الأوقات والأهوال على المريد، الذي دخل في معركة عنيفة، الصراع فيها قائم بين نفسه النزاعة إلى الشر، وبين قلبه الطموح إلى الخير، فيجد نفسه في ظلمات لا مخرج له منها، إلى أن تمتد له يد خبير على علم ودراية بمخاطر الطريق لتنقذه وتنير بصيرته، هذه اليد هي يد الشيخ المربي، فالصوفية يعتبرون وجود الشيخ مع المريد ركن أساسي في الطريق، فهو بمثابة الدليل للمسافر إلى بلد أجنبي، فما هي الشروط التي يجب توفرها في الشيخ المربي؟

-**أهلية المشيخة**: ذكر الشيخ الجيلاني أقوال متناثرة في مجالسه وكتبه عن صفات من يصلح أن يكون شيخا للمريد، منها قوله: «من أراد الفلاح فليصير أرضا تحت أقدام الشيوخ، ما صفة هؤلاء الشيوخ؟ هم التاركون للدنيا والخلق المودّعين لهما...الذين تركوا الأشياء وودّعوها وداع من لا يعود إليها قط، ودّعوا الخلق كلهم ونفوسهم من جملتهم »[2].

ونظرا لندرة الشيخ الكامل الذي يصفه الجيلاني بأنه كالكبريت الأحمر لقلّته، فهو يوصي مريديه بأن يصدقوا مع الله في طلب من يدلهم على الطريق قائلا: «...كل واحد منكم إذا جنّه الليل ونام الخلق

[1]- أحمد نصيب المحاميد، الحب بين العبد و الرب، دار الفكر، دمشق، ط3، 1991م، ص 256

[2]-عبد القادر الجيلاني، الفتح الرباني والفيض الرحماني، ص205.

وسكنت أصواتهم، فليقم وليتوضأ وليصلي ركعتين ويقول: يا رب دلني على عبد من عبادك الصالحين المقربين حتى يدلني عليك ويعرفني طريقك، السبب لا بد منه، كان الله عزوجل قادرا أن يهدي إليه بلا أنبياء...فتش على من يكون مرآة لوجه دينك»[1].

ويركز الشيخ الجيلاني على المشايخ العلماء العاملين، لأن العمل بالعلم هو علم الفلاح، فيقول: «أصحبوا العلماء المتقين فإن صحبتكم لهم بركة عليكم، ولا تصحبوا العلماء الذين لا يعملون بعلمهم، فإن صحبتكم لهم شؤم عليكم »[2]. وفي موضع آخر يقول: «لا بد لك من شيخ حكيم عامل بحكم الله تعالى يهديك ويعلمك وينصحك»[3]، لأن «فتح كل أحد ونوره على حسب متبوعه ونوره»[4].

وقد حدد الشيخ أبو نجيب السهروردي أنواع الصالحين وعيّن منهم من يتوفر على أهلية المشيخة، فقسمهم إلى أربعة أقسام: سالك مجرد، ومجذوب مجرد، وسالك متدارك بالجذبة، ومجذوب متدارك بالسلوك.

**فالأول**: السالك المجرد، لا يؤهل للمشيخة لبقاء صفات نفسه، فهو لا يزال يعاني من وهج المكابدة.

**والثاني**: المجذوب المجرد من غير سلوك، وهذا يرفع عن قلبه الحجاب ولا يمر بالمجاهدات، وهذا لا يؤهل للمشيخة.

**الثالث**: السالك الذي تُدورِك بالجذبة، وهو الذي كانت بدايته بالمجاهدة بكامل شروطها، ثم أُخرج من وهج المكابدة، وتتوالى عليه الفتوحات ويكون ظاهره مسددا، وباطنه مشاهدا، ومثل هذا يؤهل للمشيخة.

**الرابع**: المجذوب المتدارك بالسلوك، يُبادئه الحق عز وجل فيرفع عن قلبه الحجب ويمر بالمجاهدات لكن من غير مكابدة ولا عناء، ويزيده الله إرادة خاصة، ومحبة خاصة، وهذا هو المقام الأكمل في

---

[1]- عبد القادر الجيلاني، الفتح الرباني والفيض الرحماني ، ص210.

[2]-المصدر نفسه، ص61.

[3]-المصدر نفسه،ص88.

[4]-أحمد زروق، قواعد التصوف، ص26.

المشيخة[1].

يبدو من أول نظرة في هذه الأقسام الأربعة لأهلية المشيخة، أن النوع الثالث (السالك المتدارك بالجذبة) هو المقام الأكمل للمشيخة، لما حازه من خبرة وتجربة خلال مكابداته، أي أنه يبدو أكثر إدراكا لمعاناة المريد، وأقرب له ممن لم يمر بالمجاهدة ولم يذق مرارتها, لكن في حقيقة الأمر أن اختيار الشيخ السهروردي هو الاختيار الأدق، فالمجذوب المتدارك بالسلوك، وإن لم يعش معاناة وصراع الأهواء، فإن إدراكه للأمور أعمق من إدراك النوع الثالث (السالك المتدارك بالجذبة)، لأنه صار في مقام أرفع وأعلى في المعرفة، وبالتالي فهو يبصر بالله ويسمع بالله، بل وإن إرادته من إرادة الله، وبالتالي فإن تربيته للمريد أكمل لكمال معرفته، وكمال إدراكه، لأن العبرة ليست بالخبرة بل بدرجة المعرفة التي يفوق فيها الإدراك لحقائق الأمور كل خبرة وكل تعقل، فمن يرى بنور الله تخترق بصيرته نفسية المريد، فيرى موضع الداء ولعلمه اللدني يعلم العلاج المناسب، ولقوة حاله مع الله يسري منه إلى المريد، فتتحسن حاله ويُخفف عنه شيئا من المعاناة، يقول الشيخ الجيلاني في ذلك: «وأن تصحب بعض ملوك المعرفة حتى يدلك ويعرفك ويحمل عنك ثقلك، تمشي في ركابه فإذا تعبت أمر بحملك أو أردفك خلفه. إن كنت محبا أردفك خلفه، وإن كنت محبوبا أركبك في سرجه، وركب هو خلفك، من ذاق هذا فقد عرفه، القعود مع أهل الأهلية نعمة»[2].

إذن ليس كل سلوك يصلح لأن يقع التوجه إليه، ولا كل عاقل يستحق أن يؤخذ عنه بالمراقبة لأفعاله، وإذا رغب المتقرب في التخلق لزم أن يطلب من بمقدوره أن يفي بحاجته من تطهير عقله وترسيخ المعاني في قلبه[3].

وقد وضع طه عبد الرحمن أوصافا للنموذج المؤهل للمشيخة وهي أن يكون:

-مثال المراقبة: بأن يكون لسلوكه سند عملي متصل.

-مثال الفهم: أن يكون قريب من الأصول الإسلامية قرب عمل وحال لا قرب نظر ومقال،

---

[1]-عبد القاهر بن عبد الله السهروردي، عوارف المعارف، ص87-88.

[2]-عبد القادر الجيلاني، الفتح الرباني والفيض الرحماني، ص188.

[3]-طه عبد الرحمن، العمل الديني وتجديد العقل، ص193.

ومتى حضر مع هذه الأصول بعقله المؤيد لا بالنظر، كان أبصر الناس لأخبارها وأحكامها، إذ يكون فهمه لها فهما بالحضرة لا فهما بالفكرة، وشتان بين الفهم المستنير بنور الاشتغال، وفهم منقطع عن الاشتغال[1].

-مثال الإعتقاد: «إذا لبست المعاني النموذج، واتحدت بها جوارحه وتفاعلت بها أحواله، تجددت مداركه العقلية والوجدانية، وقامت بها أسباب الإنتاج والإبداع...فيكون أوفق مجتهد وأحق بأن يقتدى به»[2].

-مثال القبول: لما كانت المعاني قيما سامية مطلوبة، ومثلا عليا محبوبة، وكان النموذج متحققا ومتخلقا بها في جميع جهاته الظاهرة والباطنة، انعكس عليه وصفها وقدرها فصار على هذه المعاني الروحية، والتشبه به تشبها بها[3].

مما تقدم، يبدو أن المسار الصوفي لا يتم إلا بوجود الشيخ، وبالشروط المذكورة، فهل تصل هذه الضرورة إلى درجة أن «من لم ير المفلح لا يفلح»[4] -على حد قول الشيخ الجيلاني-؟

**ضرورة الشيخ:**

يجمع الصوفية على ضرورة وجود الشيخ في حياة المريد الروحية، ولا يمكن الدخول في هذا الطريق إلا عن طريق مربي عارف بالله، وذلك لصعوبة الطريق وما فيه من عقبات لايستهان بقطعها. يقول الشيخ الجيلاني في ذلك: «المريد لا بد له من قائد...» [5]، ولطبيعة التصوف المختصة بالسلوك فلا بد فيه من رؤية الأحوال، فيرى المعلومة وقد سارت تجربة حية أمامه، فيفهمها بعمق، وينتقل إليه شيء من الطاقة الإيجابية لدى النموذج الكامل الذي أمامه، فلما يدقق المراقبة يزداد لديه الاستيعاب فيحسن الممارسة والتطبيق، وإذا حدث أن كان هناك خلل في هذه الممارسة، فالشيخ يصوِّب الخلل بحكمته حتى

---

[1]- طه عبد الرحمن، العمل الديني وتجديد العقل، ص193-194.

[2]-المرجع نفسه، ص195.

[3]-المرجع نفسه، ص196.

[4]-عبد القادر الجيلاني، الفتح الرباني، ص210.

[5]- المصدر نفسه، ص 164.

يصل به إلى الصورة الكاملة للتطبيق، فالمريد الصادق إذا دخل تحت حكم الشيخ وصحبه وتأدب بآدابه، يسري من باطن الشيخ حال إلى باطن المريد، كسراج يقتبس من سراج، وكلام الشيخ يلقن باطن المريد، ويكون مقال الشيخ مستودع نفائس الحال، وينتقل الحال من الشيخ إلى المريد بواسطة الصحبة وسماع المقال، ولا يكون هذا إلا لمريد حصر نفسه مع الشيخ، فبالتآلف الإلهي يصير بين الصاحب والمصحوب امتزاجا وارتباطا بالنسبة الروحية والطهارة الروحية[1].

«وأما الإفادة بالهمة والحال، فقد أشار إليها أنس بقوله: ما نفضنا التراب عن أيدينا من دفنه ﷺ حتى أنكرنا قلوبنا، فأبان أن رؤية شخصه الكريم ﷺ كانت نافعة لهم في قلوبهم، إذ من تحقق بحالة لم يخلو حاضروه منها، فلذلك أمر بصحبة الصالحين ونهى عن صحبة الفاسقين»[2].

ويؤكد الشيخ الجيلاني أن هذا الأمر ليس علما يؤخذ على الورق، بل لابد من وجود النموذج قائلا: «العلم يؤخذ من أفواه الرجال لا من الدفاتر، يؤخذ من الحال لا من المقال، يؤخذ من الفانين عنهم وعن الخلق، الباقين بالحق عز وجل»[3].

فمن مواصفات المربي عند الشيخ الجيلاني، أن يكون من أهل البقاء وهي قمة المعرفة، والشيخ الجيلاني قد عان من نيران المجاهدة وذاق من بركة صحبة الشيخ الذي كان يطفئ هذه النيران بحكمته قائلا: «هذا شيء لا يجيء بعجلتك يحتاج إلى حبال ورجال وصبر ومعاناة ومجاهدة، وأن تصحب بعض ملوك المعرفة حتى يدلك ويعرفك ويحمل عنك ثقلك، تمشي في ركابه فإذا تعبت أمر بحملك أو أردفك خلفه، إن كنت محبا أردفك خلفه وإن كنت محبوبا أركبك في سرجه وركب هو خلفك، من ذاق هذا فقد عرفه، القعود مع أهل الأهلية نعمة»[4].

وها هو الشيخ أحمد زروق يعتبر الشيخ أصل في العلم والعمل، ولذلك يجب الرجوع لهذا الأصل في كل حين لمنع التشتت بين المشارب المختلفة، على شرط أن يكون هذا الأصل من المشايخ، متحقق متبع من

---

[1]-عبد القاهر بن عبد الله السهروردي، عوارف المعارف، ص96.

[2]- أحمد زروق، قواعد التصوف، ص39.

[3]-عبد القادر الجيلاني، الفتح الرباني والفيض الرحماني، ص167.

[4]-المصدر نفسه، ص188

أهل التمكين، وفي هذا المعنى يقول: «ضبط النفس بأصل يرجع إليه في العلم والعمل، لازم لمنع التشعب والتشتت فلزم الإقتداء بشيخ قد تحقق اتباعه للسنة، وتمكن من المعرفة ليرجع إليه فيما يرد أو يُراد»[1].

وهناك أيضا أمر آخر مهم في ضرورة وجود الشيخ مع المريد، وهو أن المريد إذا أراد أن يسلك الطريق وتنقل بين المشايخ دون أن يلزم شيخا واحدا كأصل ثابت متكامل يرجع إليه، هذا لا يأمن عليه الإنتكاس والسقوط، لذلك الحاجة هنا ملحة إلى وجود شيخ مربي يجنب المريد مغبة السقوط، لأنّ الشيخ يعالج كل مريد بما يناسبه، فما يصلح لسالك ليس بالضرورة يصلح لآخر، ويدل على ذلك اختلاف أحوال الصحابة في أعمالهم، ووصايا رسول الله ﷺ ومعاملته لهم[2].

فأخذ العلم والعمل عن المشايخ أتم من أخذه من دونهم, لقوله تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَـٰتُۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾ [3]،وقوله أيضا: ﴿ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ﴾[4]، فلزمت المشيخة[5].

إن هذا الإجماع على ضرورة وجود شيخ، يدفعنا إلى التساؤل عن إمكانية الوصول بدون شيخ، خاصة وأن هناك من يستبعد هذا الأمر مثل الشيخ ابن عجيبة الذي يؤكد من خلال تجربته ومحاولته أنه لا يمكن الوصول بدون شيخ، قائلا: «وهذا أمر ذوقي لا أقلد فيه أحدا، فقد صلينا كثيرا وصمنا واعتزلنا كثيرا وذكرنا كثيرا وقرأنا القرآن كثيرا، والله ما عرفنا ولا ذقنا حلاوة المعاني حتى صحبنا الرجال أهل المعاني، فأخرجونا من التعب إلى الراحة، ومن التخليط إلى الصفا، ومن الإنكار إلى المعرفة»[6].

عندما عرضنا تقسيم الشيخ أبي نجيب السهروردي لأمر الصالحين ومن يؤهل منهم للمشيخة وجدنا من بين الأربعة أقسام نوعين قد وصلوا من غير شيخ ولا دليل، فهم قد جُذبوا بمبادأة الحق عزوجل لهم بالكشوف، فالمجذوب المجرد من غير سلوك غير مأخوذ في طريق أعماله ما عدا الفريضة، فلا

---

1- أحمد زروق، المرجع السابق، ص39.

2- أحمد زروق، قواعد التصوف، ص 38

3-سورة العنكبوت، الآية: 49.

4-سورة لقمان، الآية: 15.

5- أحمد زروق، المرجع السابق، ص39.

6-جمال ماضي، فقه السالكين، ص155.

يحتاج إلى مربي، وأما المجذوب المتدارك بالسلوك فتجري عليه صورة المجاهدة من غير مكابدة، ولا عناء، بل بلذة ومحبة، وهذا أيضا لا يحتاج إلى من يدله على العقبات والمفاوز، لأنها لا تعتبر في حقه عقبة وهولا يصارعها ويتعذب من أجل تخطيتها.

وقد استثنى الشيخ عبد القادر الجيلاني (المجذوب)، لعدم احتياجه للشيخ قائلا: «فالمشايخ هم الطريق إلى الله عز وجل والأدلاء عليه والباب الذي يدخل منه إليه، فلا بد من كل مريد لله عز وجل من شيخ، إلا على الندور والشذوذ فيجوز أن يصطفي الله عبدا من عباده فيتولى تربيته وحراسته عن الشيطان وهانات النفس والهوى...إلا أنّا بيّنا ما هو الأغلب والأكثر والأسلم والأحسن»[1].

ولندرة الشيوخ المربين العاملين بالله إلتجأ السالكون إلى بديل عنهم، فقال بعضهم بالاكتفاء بالكتب، وقال آخرون بكثرة الصلاة على النبي ﷺ، فأصحاب القول الأول روى عنهم صاحب القواعد قائلا: «وقد تشاجر فقراء الأندلس من المتأخرين في الاكتفاء بالكتب عن المشايخ، ثم كتبوا للبلاد، فكل أجاب على حسب فتحه، بالنظر إلى حال الطالب، فالبليد لا بد له من شيخ يربيه، واللبيب يكفي الكتاب في ترقيه، لكنه لا يسلم من رعونة نفسه لإبتلاء العبد برؤية نفسه»[2].

وأما أصحاب القول الثاني، فيروي الشيخ الشعراني عنهم وعن نفسه، أن ثم جماعة ببلاد اليمن لهم سند بتلقين الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ فيلقنون المريد ذلك ويشغلونه بالصلاة على رسول الله ﷺ، فلا يزال يكثر منها حتى يترقى بذلك في أيام قلائل، ويستغني عن جميع الأشياخ. وممن وصل من هذا الطريق الشيخ جلال الدين السيوطي الذي يتحدث عن نفسه قائلا: «وأخذتها أنا بحمد الله عن الشيخ نور الدين الشنواني...وأضاف أن من شروطها أكل الحلال وعدم الإشتغال بشيء آخر معها، سوى ما أُذن له فيه شرعا»[3].

إذا كان هناك من يقول بالصلاة عن النبي ﷺ كبديل عن الشيخ، فإنها ذكر لله سبحانه، تعود على صاحبها بالبركة والرحمة من الله عز وجل، كما تعود عليه بفيوضات ومعية من الله لذلك العبد، ومن

---

[1]-عبد القادر الجيلاني، الغنية، ج1، ص420.

[2]- أحمد زروق، قواعد التصوف، ص40.

[3]-عبد الوهاب الشعراني، الأنوار القدسية في بيان أداب العبودية، ص32-33.

داوم عليها من الأصفياء أحس بآثار هذه التربية تمام الإحساس[1].

وإذا كانت هذه هي أقوال المتقدمين فكيف حال المتأخرين والمعاصرين؟

**وضعية المشيخة في عصرنا:**

إذا أردنا أن نقوم بما قام به أهل اليمن، فإن ذلك العمل نفسه يتطلب وجود شيخ ليلتزم المريد بعدد من الصلوات لا تحصى عن النبي ﷺ، حتى أنه لا ينشغل عنها بسواها، كما أن من يفتح عليه منها لا بد وأن يعرضه على شيخ ليسدده، إن كان مخطئا أو يستحسنه إن كان سليما، وبالتالي فليس أمامنا إلا الإرادة القوية للإلتزام بهدي الكتاب والسنة مع تعمق في فهمها عن طريق أمرين:

**أولهما:** بالدراسة الجادة للقرآن والسنة من أجل العمل بما توصل إليه فيهما، قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾[3].

**والثاني:** إتقان العبادات وإتباع السنة في كل الأمور، قصد التعبد بها واللجوء إلى الله، والتذلل إليه، والشعور العميق بالإفتقار إليه سبحانه.

فيتوفر العلم والعمل مع الصدق والإخلاص والافتقار يأتي الفتح من الله والله شكور، ومن يأتيه مشيا يأتيه سبحانه هرولة وهو اللطيف الخبير، والصدق يفعل الأعاجيب، ولذلك قيل: «لا يعوزك وجدان الذاكرين، وإنما يعوزك وجدان الصدق في طلبهم، جد صدقا تجد مرشدا»[4].

والشيخ الجيلاني إذ يقول بضرورة الشيخ، فإنه ذلك في رأيه ضرورة مرحلية فقط، لأن «الشيخ يُحتاج إليه ما دام ثم هوى، وإرادة لكسرهما، وأما بعد زوالهما فلا، لأنّه لا كدور ولا نقصان»[5].

---

[1]- عمر عبد الله كامل، التصوف بين الإفراط والتفريط، ص94.

[2]-سورة الإسراء، الآية: 9.

[3]-سورة الجمعة، الآية: 2.

[4]-جمال ماضي، فقه السالكين، ص155

[5]-عبد القادر الجيلاني،فتوح الغيب،ص40

إن ظاهرة التوجه والمراقبة المباشرة التي هي الأساس الذي يحقق التصوف، هي ميل مركوز في فطرة الإنسان، ذلك أن كل فرد يجد نفسه مولعا بتقليد غيره لحصول التعظيم في النفس[1]. وهو ما أدركه شيخنا الجيلاني بأن الله عز وجل أجرى العادة بأن يكون في الأرض شيخ ومريد، صاحب ومصحوب، تابع ومتبوع من لدن آدم إلى أن تقوم الساعة[2].

إذن الحاجة إلى النموذج فطرة، والفطرة تبقى مُلحة، وبالتالي فالمشيخة تظل مطلبا فطريا لدى المريد، لا يلغيه وجود البديل ولا تأويل المؤولين.

ولابن عطاء الله السكندري حكمة يقول فيها بأن الله يخفي أولياءه عن الناس، فإن رأيت وليا فأعلم أن الله يريد أن يوصلك، ويشرح سعيد حوى هذه الحكمة العطائية القائلة: سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه، و لم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه. قائلا: "وليس كل إنسان مؤهلا لمعرفة أهل الفضل، فقد جعلها مغيبة خفية...الدليل على أوليائه آثارهم، كما أن الدليل عليه عز وجل آثاره، فمن أراد الله إكرامه بالولاية...دله عليهم...ومتى دلّك فقد أراد وصولك ما تأدبت واستقمت"[3].

إن هذا الركن يُعد الأساس الذي يرتكز عليه السالك، وهو البوابة الرئيسية للمرور إلى الركنين الهامين وهما الذكر والفكر، فما أهمية دورهما حتى يعتبران من أركان التصوف؟

**2/ ركن الذكر:** تعد تجربة الذكر من أهم أركان الممارسة التخليقية، وهي الوسيلة التي لا غنى للسائرين عنها لبلوغ مقامات الرجال، وبدون الذكر لن يصل السالك إلى مقصوده.

وسنورد الآن بيان كيف يكون التعبد بالذكر عماد الوصول إلى المعرفة، وذلك من خلال مفهومه عند الصوفية عموما وعند الشيخ الجيلاني خصوصا.

**أ-الذكر عند الصوفية:**

---

[1]-طه عبد الرحمن، العمل الديني وتجديد العقل، ص193.

[2]-عبد القادر الجيلاني، الغنية لطالبي طريق الحق، ج1، ص418

[3]-سعيد حوى، مذكرات في منازل الصديقين والربانيين، ص452.

تنوعت تعريفات الذكر عند الصوفية، إلا أنها تصب في مشرب واحد وهو المعرفة والتوحيد الخالص لله تعالى،كما أنهم أجمعوا على أن عمدة الطريق الإكثار من ذكر الله عز وجل، حتى أن الشيخ الشعراني جعله الوظيفة الأساسية للمريد فلا يكون له شغل إلا بالذكر وحده.[1] وجعله أبو علي الدقاق الركيزة والعمدة في الطريق، وبدونه لن يكون هناك وصول قائلا: "والذكر ركن قوي في طريق الحق سبحانه وتعالى بل هو العمدة في هذا الطريق ولا يصل أحد إلى الله إلا بدوام الذكر"[2]. وأما ابن خلدون فيراه غذاء الروح، بل الذكر في أرقى درجاته هو الشهود والكشف ذاته، قائلا: "الذكر كالغذاء لتنمية الروح، ولا يزال في نمو وتزيّد إلى أن يصير شهودا بعد أن كان عَلما، ويكشف حجاب الحس"[3]. كما نجد الشعراني يشهد بإجماع الصوفية على أن الذكر ركن مكين، فهو تأشيرة الدخول إلى صرح الولاية، قائلا: "وأجمع القوم على أن الذكر مفتاح الغيب وجاذب الخير وأُنس المستوحش ومنشور الولاية، فلا ينبغي تركه ولو مع الغفلة[4]. كما نجد رؤية ذو النون المصري للذكر على أنه يأخذ بيد السالك ليوصله إلى التحقق ويدخله من بابه الكبير وهو الفناء قائلا: «من ذكر الله على الحقيقة نسي في جنب ذكره كل شيء وحفظ الله عليه كل شيء وكان له عوضا عن كل شيء ويصل به الذكر إلى الغيبة عن الذكرِ نفسِه»[5].

## الذكر عند الشيخ الجيلاني:

الذكرعند الشيخ الجيلاني درجات، فلما سُئل عن أعلاه درجة أجاب جواب العارفين قائلا: "هو ما تأثر في الفؤاد من إشارة الحق وقت الاختيار إليه لبقاء العناية السابقة له، فهو ذكر دائم ثابت راسب لا يقدح فيه نسيان ولا تدركه غفلة وكان السكوت والنفس والخطوة مع هذا الوصف ذكرا وهو الذكر الكثير الذي أشار إليه الحق سبحانه في تنزيله وأحسن الذكر ما هيجته الأخطار الواردة من الملك الجبار

---

[1]- عبد الوهاب الشعراني الأنوار القدسية في بيان آداب العبودية ،ص 35.

[2]- القشيري، الرسالة القشيرية، ص256

[3]- عبد الرحمان بن خلدون، المقدمة، موفم للنشر، دط، 1991، ص.....

[4]- عبد الوهاب الشعراني ، المرجع السابق، ص 49

[5]- القشيري، المصدر السابق، ص 257

فكَمِن في محل الأسرار"[1].

وهذا التعريف للذكر عند شيخنا دليل رسوخه في المعرفة وتجربته الحية في ميدان الذكر وتجده يصف ذكر العارفين قائلا: «لكل ذكر من أذكارهم روح، وكل منهم أذهلته عظمةُ من تجليه في أسمائه، فانفعلت ذواتهم بتلك الأسماء، فهم ذاكرون من الذهول وذاهلون من الذكر». [2]

إن حديثه عن الذكر حديث عابد أُلهم الذكر مع كل زفير وشهيق، فعنده ما عرف قدر جلال الله من فتر لحظة عن ذكره كما نجده يعبر عن الذكر بعبارات ذوقية، ولكن يبقى الذوق ذوقا فلا تغني العبارات عنه شيئا، فنجده يقول: « ودرر حمد الله لايُرصَّع بها إلا تيجان مفارق الأسرار...ومسك شكره لا يفتق إلا في جيوب ثياب الأرواح...وورد الثناء عليه لا يطلع إلا على شجرة ألسن عباده المؤمنين»[3].

«يتطلع العبد بالذكر إلى أن يجد شعورا قويا بالله...بحضوره وقربه، فللذكر تقربا وتبتلا وحبا وميلا...فالذاكر يريد أن يتوجه إلى الله بكل مشاعره لكي يصل إلى لحظة تفجر نور الغبطة فيه، وهو ذكر المخلصين، لم يجعلوا بينهم وبين الله إلها»[4]. هذه الغبطة والتودد عبّر عنها الشيخ الجيلاني في قوله: "التلذذ بحلاوة مناجاة الله كؤوس راحات الأرواح...وأطيب نسيم هب على مشام القلوب نسيم الأنس بالله عز وجل"[5].

وأهل هذه الطائفة من تعظيمهم لله وإجلاله، قد عظم عندهم ذكره وأعطوه من المكانة والتقديس ما يستحقه، لذلك قالوا عن الذكر بأنه منشور الولاية، أي مرسوم من الله للعبد بالولاية كمراسيم ملوك الدنيا بالوظائف ولله المثل الأعلى، فمن وفق لدوام ذكر الله تعالى فقد أُعطي المرسوم بأنه ولي لله عز وجل، ومن يُسلب عن الذكر فقد عُزل عن الولاية[6].

---

[1]- علي بن يوسف الشطنوفي ، بهجة الأسرار، ص 122

[2]- علي بن يوسف الشطنوفي ، بهجة الأسرار، ص48.

[3]- المرجع نفسه والصفحة.

[4]-النصوص في مصطلحات التصوف، ص135 .

[5]-علي بن يوسف الشطنوفي، المرجع السابق، ص48.

[6]-عبد الوهاب الشعراني، الأنوار القدسية في بيان آداب العبودية ،ص35.

ومن ذاق عرف معنى هذا الحديث: «ألا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من تعاطي الذهب والفضة، ومن أن تلقوا عدوكم غدا فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم، قالوا: بلى يارسول الله، قال: ذكر الله عزوجل»[1].

ذلك لأن ذكر الله تعالى عظيم في معالجة النفس وتنقيتها من أمراضها، إذ يتكون في القلب من الاستمرار عليه شعور بالرقابة الإلهية، على كل ما يتلبس به الإنسان من التصرفات والأعمال والنيات[2]ومنه يبدأ نفوذ الذكر إلى الروح، ومع المداومة على ذلك،يتدرج السالك صعودا في الترقي الروحي، فيتحقق بمعاني شهودية،كالاستسلام لله وما يليها من درجات التوحيد.

والأحاديث النبوية تثبت أن مبتغى الذكر ومقصوده الأسمى هو هذا الإستسلام لله، ومنه إلى الإستغراق في شهود الله والغيبة عما سواه. فعن أبي هريرة ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من قال سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، قال الله: أسلم عبدي واستسلم»[3].

فالهدف إذن من ترداد هذه الكلمات المباركة أن يتغلغل معناها، في رفق في نفس الإنسان وفي كيانه كله، حتى تقوده إلى الإسلام والاستسلام، إلى إسلام الوجه له سبحانه، وإلى الاستسلام الكلي لجلاله، إن الذكر يوجه إلى هذا ويقود إليه وهو غايته.

فتنزيه الله يؤدي إلى الرضا والاستسلام لكل ما يأتي عنه من أقوال وأفعال هي الحق، والخير والجمال[4]، ولقد تكرر الأمر من الله تعالى لنبيه ﷺ في كثير من آي القرآن لقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾[5]، وكذلك

---

[1]-اخرجه الامام احمد، كتاب الاذكار والدعوات، باب ماجاء في فضل الذكر مطلقا والاجتماع عليه، انظر احمد عبد الرحمان البنا، الفتح الرباني لترتيب مسند الامام احمد بن حنبل الشيباني، دار إحياء التراث العربي، ط2، دت،ج14، ص 198.

[2]-محمد سعيد رمضان البوطي، باطن الإثم –الخطر الأكبر في حياة المسلمين–، دار البعث، قسنطينة، ط2، دت، ص50-51.

[3]-أخرجه الإمام احمد ابن حنبل،كتاب الاذكار و الدعوات،باب ماجاء في فضل الذكر مطلقا والاجتماع عليه،انظر احمد عبد الرحمان البنا، الفتح الرباني لترتيب مسند الامام احمد بن حنبل الشيباني ،دار احياء التراث العربي،ط2، دت، ج14،ص229.

[4]-عبد الحليم محمود، قضية التصوف، ص80.

[5]-سورة طه، الآية: 130.

وكذلك الحمد والتهليل والتكبير، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، كلها تجريد وتوجه كامل إلى الله، استسلاما خالصا له وحده، وهذا هو التوحيد الذي بعثت من أجله الرسل[1].

ويقول الشيخ الجيلاني في هذا المعنى: «إن الذاكر لله عز وجل ينتقل من حياة إلى حياة... كلما دام العبد في ذكر الله تعالى، دامت موافقته له ورضاه بأفعاله...ما أعجب أمور القوم، ما أحسن أحوالهم، كل ما يأتيهم من الحق عزوجل عندهم طيب، قد سقاهم بنج معرفته، ونوّمهم في حجر لطفه، وآنسهم بأنسه، فلا جرم يطيب لهم المقام معه والغيبة عن كل شيء سواه»[2]، وهذا كله من دوام الذكر.

ومن سمات المحبين لله العارفين به هو دوام الذكر، إذ يصفهم الشيخ الجيلاني في قوله: «قلوبهم أبدا له ذاكرة بين يديه حاضرة وعن غيره معرضة وعليه مقبلة، فهو معهم حافظ لهم ولهم مؤنس»[3]. وفي هذا المعنى نفسه يقول الشيخ الجيلاني: «أذكره حتى يذكرك، حتى يحط الذكر عنك أوزارك، تبقى خاليا عن وزر، تصير طاعة بلا معصية، فحينئذ يذكرك فيمن ذكر، فتشتغل عن جميع مقاصدك، إذ صار هو كل مقصودك, جعل مفاتيح خزائن الملك في يد قلبك»[4]. ومن ذلك تبدو صلة الذكر بالمعرفة واضحة، فهو معلم الطريق إن لم نقل كل الطريق.

إذا كان الذكر المؤثر النافع هو الذكر الدائم، مع حضور القلب، فما معنى حضور القلب؟

من خلال حكمة ابن عطاء الله السكندري القائلة: «لا تترك الذكر لعدم حضورك مع الله فيه، لأن غفلتك عن وجود ذكره أشد من غفلتك في وجود ذكره، فعسى أن يرفعك من ذكر مع وجود غفلة إلى ذكر مع وجود يقظة، ومن ذكر مع وجود يقظة، إلى ذكر مع وجود حضور، ومن ذكر مع وجود حضور إلى ذكر مع غيبة عما سوى المذكور، وما ذلك على الله بعزيز»[5].

---

[1]-عبد الحليم محمود، قضية التصوف، ص122-124.

[2]-عبد القادر الجيلاني، الفتح الرباني، والفيض الرحماني، ص67-68.

[3]-المصدر نفسه، ص184.

[4]-المصدر نفسه، ص195.

[5]-محمد سعيد رمضان البوطي، الحكم العطائية شرح وتحليل ، ج2، ص196.

تبين أن الذكر درجات، فكل درجة تسلمك إلى التي فوقها، وتلك المراحل هي:

1_**ذكر مع غفلة**: في الغفلة لا يشعر القلب بالذكر، وهو حسب رأي المشايخ أفضل من ترك الذكر، ففيه يعرض السالك نفسه لنفحات رحمة الله بما في استطاعته، عسى أن يسلك به طريق الترقية في درجات الذكر[1]. كما يقول الشيخ الجيلاني: «الذكر أولا باللسان، ثم يتعدى إلى القلب»[2].

2-**ذكر مع يقظة الذاكر**: تعني مجرد سَيره الفكري مع معاني الكلمات التي يرددها[3]. فهو مستيقظ ويعقل ما يقول[4].

3-**ذكر مع حضور**: وهو وجود معنى الذكر في الفؤاد لا ينفك عنه[5]، فإذا حضر القلب مع الله الله أثناء الذكر وانجذب إليه بمشاعره فلا بد أن يغيب بمقدار حضوره مع الله، عن أفكاره وعواطفه الأخرى الدنيوية[6].

4-**ذكر مع غيبة**: لّما يُجذَب الذاكر إلى الله أثناء ذكره فيستغرق في شهوده وتُغيِّبه حاله مع الله عن الدنيا وأهلها[7]، فهذه حالة الذاكر مع غيبة عما سوى الله، وهذه هي الدرجة العليا من الذكر, وكما قيل الدرجة العليا من الذكر طريقها الذكر، فلا طريق للوصول إلى الكمال القلبي إلا بذكر الله[8]. الله[8].

إن ذكر الله ودعاؤه والتفويض إليه هي من وراء تحمل المؤمن لأعباء الجهاد، والدعوة والانتصار على شح النفس وأمراضها، وهو ما يعنيه قوله الله تعالى: ﴿ **إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡئٗا وَأَقۡوَمُ قِيلٗا** ﴾[9]،

---

[1]-جمال ماضي، فقه السالكين، ص58.

[2]-عبد القادر الجيلاني، الفتح الرباني، ص237.

[3]-محمد سعيد رمضان البوطي، الحكم العطائية شرح وتحليل ، ج2، ص199.

[4]-جمال ماضي، المرجع السابق، ص58.

[5]-المرجع نفسه، ص58.

[6]-محمد سعيد رمضان البوطي، المرجع السابق، ص200.

[7]-المرجع نفسه، ص203.

[8]-جمال ماضي، المرجع السابق، ص60.

[9]-سورة المزمل، الآية: 6.

﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا﴾[1]، ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾[2]، وكما يقول الشيخ محمد الغزالي: «من العبث تصور التسبيح والتحميد حركة الشفتين، واضطراب اللسان...إنه تفتح قلب وإتضاح غاية وسفر نفس إلى بارئها، فالليل والنهار خطوات سير ومراحل الطريق"[3].

ويعبر الشعراني عن جلسة ذكر بشروطها بأنها حضرة لا يَرِد عليها سالك ويفارقها بغير مدد[4]. وما ثَم أسرع من فتح الذكر[5]، هذا الفتح يفسره طه عبد الرحمان بقوله: «حسبك من دلائل أهمية انصراف القلب إلى ذكر الله وخطورة انصرافه عن ذكره. قول الله عز وجل لرسوله الكريم ﷺ: ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾[6]،[7].

ولكي تكون لهذه الأذكار آثار على القلب ونفوذ إلى الروح فينبغي أن يلازمها تأمل وفكر في آيات الله وآلائه، لذلك يعتبر الفكر منطقة عبور الذكر إلى القلب، فما علاقة الفكر بالذكر؟

### 3-ركن الفكر:

إذا كان الذكر عمدة الطريق، فإن الفكر هو عمدة الذكر، وبدونه لن يكون للذكر أثر على الفؤاد، ولن يرقى الذاكر إلى درجة العرفان إلا بدوام الفكر.

إن التفكر من أجلّ العبادات وأجلبها لليقين، وبه يدخل إلى العرفان من بابه الأكبر، يقول ابن القيم:"أن الفكر أقسام يرأسها قسم الفكر في آلاء الله ونعمه وأمره. ونهيه وطريق العلم به وبأسمائه وصفاته، وهذا الفكر يثمر لصاحبه المحبة والمعرفة"[8]. ويعظم ابن القيم نوعية هذه الأفكار، لأنها تجعل

---

[1]-سورة المزمل، الآية: 7.

[2]-سورة المزمل، الآية: 9.

[3]-محمد الغزالي، ركائز الإيمان بين العقل والقلب، دار الشروق، القاهرة، ط2، 2002، ص184.

[4]-عبد الوهاب الشعراني، الأنوار القدسية، ص42.

[5]-المرجع نفسه، ص43.

[6]-سورة الكهف، الآية: 28.

[7]-محمد سعيد رمضان البوطي، شرح الحكم العطائية، ج2، ص206.

[8]-ابن القيم الجوزية، الفوائد، ص255.

للسالك همّة عالية بل تحيي الهمة بعد موتها، وتجعله في واد والناس في واد، لأنها تثمر مبتغى السالكين وهي المحبة والمعرفة.

وقد سئل المحاسبي أي العبادة أفضل، قال: «أفضل العبادة العلم بالله عزوجل، والتعظيم له...وحسن الإنتقال من التفكر من حال إلى حال»[1]. فمن خلال التذكر الصحيح يعرف الإنسان ربه فيعبر عن هذه المعرفة بكثرة ذكره سبحانه وتعالى.

والذكر يأخذ طابع التفكير في آلاء الله والتفكير في سننه وقوانينه، فعندما يقول الإنسان (سبحان الله)، فإن قوله هذا ممتزج بإدراكه وتعجبه لهذا الكون ونظامه، وكل ما يشعر به من جمال ودقة وعظمة ووحدانية خالق هذا الكون، والإعتراف بنعمه وبفضله على عباده وعلى الخلق أجمعين، يشعر الإنسان بهذا الواقع في نفسه عند تأمله وتدبره والتفكر فيه، واقتراب الإنسان من شعوره بإمكانية تسخيره[2]. فالذكر هو الترجمة العملية لما في القلب من معان أورثها الفكر، وعلى قدرها يكون التفاعل بين القلب واللسان[3].

يقول ابن القيم: «التفكر والتذكر يثمران أنواع المعارف وحقائق الإيمان والإحسان، والعارف لا يزال يعود بتفكره على تذكره، وبتذكره على تفكره، حتى يُفتح قفل قلبه بإذن الفتاح العليم»[4]. ويقول ويقول أيضا: «هناك من ينتقل الذكر من لسانه إلى قلبه، وهناك من ينتقل من قلبه إلى لسانه»[5].

ومن الموضوعات التي تحتل مساحة كبيرة في القرآن أسماء الله وصفاته، وآثارها في الكون والنفس، فالتذكر والتدبر في هذا الموضوع يؤجج مشاعر كثيرة في القلب، تثمر أعمالا تقرب إلى الله عز وجل[6]. وجل[6]. فالفكر له بعد عرفاني عميق، إذ يورث في القلب خشية وخضوعا واستسلاما وحبا ورجاءً

---

[1]-الحارث المحاسبي، المسائل في الزهد، دار الشهاب، باتنة،دط، دت، ص69.

[2]-هيام الملقي، التجارب الروحية بين التأصيل الإسلامي والاغتراب الثقافي تجديد الصلة بالله، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط1، 2001، ص91.

[3]-مجدي الهلالي، الطريق إلى الربانية منهجا وسلوكا، ص89.

[4]-المرجع نفسه، ص88.

[5]-ابن القيم الجوزية، المرجع السابق، ص247.

[6]-مجدي الهلالي، المرجع السابق، ص92.

وتوكلا عليه سبحانه، فالتفكير إذن هو مفتاح المعرفة، هذا التفكر يحتاج إلى عمل يرسخ معانيه في القلب، هذا العمل هو الذكر[1].

يقول الشيخ الجيلاني: «ما أُعطي عبد التفكر إلا أعطي العلم بأحوال الدنيا والآخرة»[2]، كما أن الشيخ يمزج بين الذكر والفكر بعبارة تدل على مدى التداخل بينهما, هذا المزيج هو الذي يجلب الفتح قائلا: «إن ذكرت ربك بألسن حصن صنعه فتح أقفال قلبك»[3]. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾[4]. نجد من خلال هذه الآيات أن ربط الذكر بالفكر لدى المؤمن يزيده خشية وإنابة لله فيقول فيقول بلسان حاله «سبحانك فقنا عذاب النار»[5].

ولكي تكون هذه الأذكار ذات معنى أومغزى ينبغي أن تترافق مع حالة شعورية تسيطر على الإنسان حين يتأمل ويتفكر في آيات الله وآلائه، كما كان يحدث مع النبي ﷺ المنيب المتعبد فتعجز الألفاظ عن ملاحقة المعاني المتجددة الواردة عليه، فيلجأ إلى التكرار في العبارة الواحدة، لينفس عما استكن في صدره من روعة ومحبة إجلال، إنه في ظاهره تكرار للفظ الواحد، وفي باطنه تعبير عن انسياب معاني جديدة من الولاء والهيام[6]، إن تذوق الذكر والتأمل يجعل من العارف يختار من العبارات مايقرب مايقرب للأذهان تلك المشاعر والمعاني, إلا أنها تبقى تقريبا وإشارة ولهذا يقول الشيخ الجيلاني معبرا عن فتوح الذكر والفكر: « أعذب موردٍ وردته عطاش العقول مورد الذكر والتوحيد»[7]. إننا نجد في الأذكار المروية عن النبي ﷺ عبارات مفعمة بالشعور الجياش والفكر العميق في العبودية الخالصة كقوله:

---

[1]-المرجع نفسه، ص88.

[2]-عبد القادر الجيلاني، الفتح الرباني في الفيض الرحماني، ص35.

[3]-علي بن يوسف الشطنوفي، بهجة الأسرار ومعدن الأنوار، ص48-49.

[4]-سورة آل عمران، الآية: 190-191.

[5]-مجدي الهلالي، الطريق إلى الربانية منهجا وسلوكا، ص87.

[6]-محمد الغزالي، فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء، دار الشهاب، باتنة، دط، دت، ص22.

[7]-علي بن يوسف الشطنوفي، المرجع السابق، ص48-49.

«سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته»[1][2].

من المعروف عند الصوفية الإهتمام بالخلوة كوسيلة يكتسب فيها المريد معاني ذوقية عميقة للذكر, والتأمل والتركيز على فكرة التوحيد، فكيف تؤدي الخلوة هذا الدور الهام في حياة السالك الروحية؟وهل يعتبرها الشيخ الجيلاني ركنا من أركان الطريق؟

## 4-ركن الخلوة:

يقول ابن عطاء الله في إحدى حكمه: «ما نفع القلب مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة»، إن العزلة ليست مرادة لذاتها، وإنما هي مطلوبة لتكون مناخا وظرفا مناسبا للتأمل والتفكير. وإذا ألزم السالك نفسه بخلوة يعزل فيها نفسه عن الناس ينبغي أن يكون متسلحا بالعلم الكافي ، وفي هذا يقول الشيخ الجيلاني: «تفقه ثم اعتزل، من عبد الله على جهل كان ما أفسده أكثر مما أصلحه»[3]. وهذا أيضا أيضا رأي القشيري إذ يرى أن الخلوة لا تتم إلا بعد تصحيح عقد التوحيد لكي لا يستهويه الشيطان بوساوسه، وبعد تحصيل علوم الشرع ليؤدي فرضه ولتكون عزلته على أساس محكم, هذا الركن الأول في المعرفة الواعية، وأضاف إليه ركن ثان وهو عنصر القوة والقدرة على كبح جماح النفس، لأن في رأيه الإنفراد لا يقوى عليه إلا الأقوياء، فمن ثمار الخلوة الصحيحة أن يشعر العبد في خلوته شعورا عميقا بالمعية والمراقبة الإلهية، حتى ليستحي أحدهم أن يمد رجليه وهو في خلوته، لأن في ذلك حفظ الأدب مع الله تعالى[4]. وأن يكون موجه إلى معاني بعينها، وهو ما يسمى بـــ"التركيز"، فلكي تتم فاعلية الإيمان لا بد من التركيز الدائم على صورة موضوع الإيمان الذهنية، بحيث تزداد في كل وقت لمعانا ووضوحا، وإشراقا في الذهن، وهذه هي النتيجة الطبيعية للتركيز[5]. فتأتي خلوته بالثمرة المرجوة، ولذلك يجب أن تكون هذه الخلوة بإشراف شيخ مربي.

---

[1]-أخرجه مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب التسبيح وعند النوم ،حديث رقم2725، انظـــر: مســـلم، الجـــامع الصـــحيح، ج8، ص1091

[2]-محمد الغزالي، ركائز الإيمان بين العقل والقلب، ص187.

[3]-عبد القادر الجيلاني، الفتح الرباني والفيض الرحماني، ص264.

[4]-إبراهيم بسيوني، الامام القشيري، ص 219-220.

[5]-أحمد حسين، الطاقة الإنسانية، المكتبة العصرية، بيروت، ط3، 1970، ص306.

إن انقطاع السالك إلى الله هو الذي يعطيه الفرصة للتأمل لمعرفة ذاته، فيدرك هويته عبدا مملوكا لله سبحانه وتعالى، ومن ثم يتعرف على ربه وصفاته، فيثمر له ذلك محبة الله عزوجل وتعظيمه وتعظيم حرماته[1]. والخلوة ترفع من مستوى التفكير، أما الخلطة قد تزيد في رعونات النفس، فهي إما أن تثير تنافسا على الدنيا أوحبا للظهور أواستطالة، وربما شغلت الأذهان بقضايا تافهة، أو تقطع ما أمر به الله أن يوصل[2].

والهدف من الخلوة عند الشيخ الجيلان، هو التفكير الذي يحيي القلوب، فيقول: «ياغلام إذا صحت خلوتك مع الله تعالى دهش سرك وصفا قلبك، يصير نظرك عبرا وقلبك فكرا...التفكير في الآخرة علم وحياة للقلب»[3].

إن الخلوة ليست هدفا لذاتها، ولذلك أجمع المربين على أنه إذا خلا الإنسان بنفسه وجال بفكره في ملكوت السموات والأرض، انعكس ذلك على قلبه صلاحا، فالخلطة تضعف صفاء القلب، وتقوي انطباع الأشياء فيه، والعزلة تجلي مرآة القلب وتساعد السالك على التحرر من رق الشهوات ويستيقظ قلبه من غفلته، وتؤهله هذه الخلوة لفهم الأسرار، وهذا كله للمبتدئين.

أما من تحصل على أهداف الخلوة فإنه يخالط الناس ظاهريا، وباطنه وسره مع الله، فكما يقول أبو علي الدقاق: «البس مع الناس ما يلبسون وتناول مما يأكلون وانفرد عنهم بسرك»[4]. وقد قال ذوالنون: «ليس من احتجب عن الخلق بالخلوة كمن احتجب عنهم بالله»[5]. وقد أعطى يحيى بن معاذ الفرق بين بين خلوة المبتدئ وخلوة الواصل، فقال: «انظر أنسك بالخلوة أو أنسك معه في الخلوة، فإن كان أنسك بالخلوة ذهب أنسك إذا خرجت منها، وإن كان أنسك به في الخلوة استوت لك الأماكن في الصحاري والبراري»[6].

---

[1]-محمد سعيد رمضان البوطي، الحكم العطائية، ج2، ص171.

[2]-محمد الغزالي، فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء، ص36.

[3]-عبد القادر الجيلاني، الفتح الرباني والفيض الرحماني، ص35.

[4]-القشيري، الرسالة القشيرية، ص138-139.

[5]-المرجع نفسه ، ص140.

[6]- القشيري، المرجع السابق، ص139.

وكل ما تقدم تلخصه حكمة ابن عطاء الله السكندري، حيث يقول: «ما نفع القلب مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة».

ويبدو أن الشيخ الجيلاني كغيره من المشايخ، يرى أن هناك فرق بين خلوة المريد وخلوة العارف، فيقول للأول مرشدا إياه: «اجعل الاستغفار دأب لسانك، والاعتراف دأب قلبك، والسكون دأب سرك، الذكر أولا باللسان ثم يتعدى إلى القلب»[1].

أما خلوة العارفين، فيصفها بقوله: «سمعوا قوله عزوجل في بعض ما تكلم به " أنا جليس من ذكرني"، فهجروا الخلق وقنعوا بالذكر حتى تحصل لهم المجالسة له»[2].

والمجالسة عند هذه الطائفة لها مدلولها الخاص، كما يقول عنها الشعراني بأنها انكشاف الحجب للعبد أنه بين يدي ربه عز وجل وهو تعالى يراه، فمتى دام العبد على هذا الشهود فهو جليس الله تعالى، فإن غاب عن ذلك المشهد خرج من حضرته[3].

ويركز الشيخ الجيلاني على الانشغال بذكر الله لذاته دون أي غرض آخر، حتى يخلص القلب لله وحده قائلا: «اشتغلوا بذكره دون مسألته، أما سمعتم قوله عزوجل في بعض كتبه من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين، يا من اشتغل بذكره وانكسر قلبه لأجله، أما ترضى من عطائه أن يكون جليسا لك». [4]ولا يزال العبد يكثر من الذكر باللفظ حتى يصير الحق تعالى مشهوده وهناك وضح الفتح، لأن الذكر لله حقيقة هو استصحاب شهود العبد أنه بين يدي ربه، والذكر باللسان إنما هو وسيلة إليه[5].

---

[1]- عبد القادر الجيلاني، الفتح الرباني والفيض الرحماني، ص237.

[2]-المصدر نفسه، ص25.

[3]-عبد الوهاب الشعراني، الأنوار القدسية، ص34.

[4]- عبد القادر الجيلاني، المصدر السابق، ص151.

[5]-عبد الوهاب الشعراني، المرجع السابق، ص34.

# الفصل الثاني:

# مرحلة التحقق عند الشيخ الجيلاني

تمهيد

المبحث الأول: الفـــناء

المبحث الثاني: البـــقاء

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

## تمهيد

لكي تستقر حقائق الإسلام وعقائده في القلب لا بد من المرور على عدة مراحل، بدءا من الإستدلال العقلي للحصول على اليقين العلمي، ثم المثابرة على الذكر والتفكر والنوافل وبذل الجهد من أجل الإستقامة حتى تهيمن تلك الحقائق على القلب وهنا ينتقل السالك إلى اليقين العملي أو الشهود العملي، وبمواصلة الجهد والتغلغل في العمل الشرعي ينتقل السالك إلى يقين أقوي وأعمق، يقين ذوقي، فيصبح يرى بعينه المخلوقات ولا تريه بصيرته من ذلك إلا الخالق، فبعد أن كانت هذه المخلوقات أمامه ذات فاعلية وقوة صارت الآن بلا حراك ولا فاعلية ولا قوة، ولا يرى أمامه إلا فاعلية الله وسلطانه، وهذا الشهود الذي بلغه يظل مهيمنا عليه في جميع أحواله وأوقاته، حتى وهو في عمق التقلبات الدنيوية والمعاشية، وما يزيده ذلك إلا قوة في يقينه بفاعلية الله وحده، حتى يدخل في حالة عدم الشعور بذاته وبالآخرين، وهذه المرحلة تسمى مرحلة الفناء.[1] والمتصوف الصادق لابد أن يصل إلى هذه المرحلة، لأن الفناء حسب رأي الجنيد هو جوهر التجربة الروحية، وهو أخص خصائص التصوف الإسلامي بإطلاق[2]. فما حقيقة هذا الفناء وما مفهومه عند الصوفية عموما ثم عند الشيخ الجيلاني خصوصا؟

---

[1]- محمد سعيد رمضان البوطي، شرح الحكم العطائية، ج2، ص80.

[2]- مجدي محمد إبراهيم، التصوف السني، ص20.

## المبحث الأول: مفهوم الفناء:

1- **المفهوم اللغوي للفناء:** الفناء نقيض البقاء. وفناء يفنى فناءً هرم وأشرف على الموت هرما، وتفانى القوم قتلا أي أفنى بعضهم بعضا[1] وفناء الشيء زوال وجوده، والفرق بينه وبين الفساد، أن فناء الشيء عدمه، على حين أن فساده تحوله إلى شيء آخر[2]. وفناء العبد عن أفعاله الذميمة: بعدم هذه الأفعال، وفناءه عن نفسه وعن الخلق: بزوال الإحساس بنفسه وبهم[3].

### 2 – المعنى الاصطلاحي:

### أ- عند الصوفية:

إن هدف السالك في رحلته الصوفية هو أن يبلغ درجة من الكمال في توحيد الله، وسبيله إلى ذلك هو إقالة النوازع النفسية من طريقه، كما عليه أيضا إزالة شبح فاعلية المخلوقات جميعا فلا يبقى أمامه إلا الفاعل الحق وهو الله سبحانه وتعالى، وفي ذلك نجد "الكلابذي" موضحا مفهوم الفناء بقوله: "الفناء هو أن يفنى عنه الحظوظ، فلا يكون له في شيء من ذلك حظ، ويسقط عنه التمييز، فناءً عن الأشياء كلها شغلا بما فني به... والحق يتولى تصريفه، فيصرفه في وظائفه وموافقاته، فيكون محفوظا فيما لله عليه، مأخوذا عن أعماله وعن جميع المخالفات، فلا يكون إليها سبيلا"[4]. وسبب ذهول السالك عن نفسه وعن كل شيء حسب رأي أبو سعيد الأعرابي هو أنه في بداية ظهور التجليات الإلهية عليه تأخذ بلبه، فيغيب عن المكونات وعن

---

[1]- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط1، باب: فن، ج15، ص164.

[2]- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج2، ص167.

[3]- أبو القاسم القشيري، الرسالة القشرية ،ص103.

[4]- أبو بكر محمد الكلابذي، التعرف لمذهب أهل التصوف، مكتبة الأزهرية القاهرة، ط2، 1980م، ص 147.

نفسه وحتى عن فنائه أيضا فيقول: «الفناء أن تبدو العظمة والجلال على العبد فتنسيه الدنيا والآخرة والأحوال والدرجات والمقامات والأذكار، تفنيه عن كل شيء وعن عقله وعن نفسه وعن فنائه عن الفناء لأنه يغرق في التعظيم عقله»[1].

فالفناء حالة من الإستغراق تعتري أصحابها، تجعلهم يذهلون بالمكوّن جل جلاله عن الأكوان التي من حولهم، مع يقينهم العقلي بوجودها، ولكنهم ذاهلون عن يقينهم هذا، وقد تمنعهم حالة الجذب من التعامل مع الناس تعاملا سويا[2].

وهذا يحصل لكثير من السالكين، فإنهم لفرط انجذاب قلوبهم إلى ذكر الله وعبادته ومحبته، وضعف قلوبهم على أن تشهد غير ما تعبد وترى غير ما تقصد...كما قيل في شرح معنى فراغ قلب أم موسى، أنه أصبح فارغا من كل شيء إلا من ذكر موسى. وهذا شعورية مرتبطة إما لخوف أو رجاء أو حب، فيكون قلبه منصرفا عن كل شيء، مستغرقا لا يشعر إلا بما خافه وأحبه أو رجاه.وكذلك الفناء فإن صاحبه يغيب بمشهوده عن شهوده[3]. ويعني به آخر الوصول إلى حقيقة العبودية التي لا يرى فيها العبد فعله، أي يفنى عن رؤية فعله لأن هذه الرؤيا آفة تمنع الوصول وتحبط أعمال صاحبها، وفي هذا يقول الهجويري عن أبي سعيد الخراز: «الفناء فناء العبد عن رؤية العبودية ويبقى برؤية فضل الله تعالى»[4].

ويقول صاحب "عوارف المعارف"عن الفناء: «هو تجلي الحق سبحانه وتعالى بطريق الأفعال ويسلب عن العبد اختياره وإرادته، فلا يرى لنفسه ولا لغيره فعلا إلا بالحق...وليس من ضرورة الفناء أن يغيب إحساس العبد، وقد يتفق غيبة الإحساس لبعض الأشخاص وليس ذلك من ضرورة الفناء على الإطلاق»[5].

---

[1]- مجدي محمد إبراهيم، التصوف السني ، ص286.

[2]- عمر عبد الله كامل، التصوف بين الإفراط والتفريط، ص234.

[3]- عبد العزيز بن عبد الله الراجحي، شرح العبودية لشيخ الإسلام ابن تيمية، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 2000، ص148.

[4]- الهجويري، كشف المحجزب، دار النهضة العربية، بيروت،دط، 1980، ص486.

[5]- السهروردي، عوارف المعارف، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، 1983،ص521.

أما ابن تيمية فيقسم الفناء إلى ثلاثة أنواع: الأول للكاملين من الأنبياء والأولياء، الثاني للقاصدين من الأولياء والصالحين والأخير للملاحدة والمشبهين[1] .

ويحدد ابن تيمية لكل نوع تعريفه مبتدءا بالفناء الخاص بالكُمّل، وهو الفناء عن إرادة ما سوى الله بحيث لا يحب إلا الله، فلا يعبد إلا إياه، ولا يتوكل إلا عليه ولا يطلب من غيره، وهذا المعنى إن سمي فناء أو لم يسم هو أول الإسلام وآخره[2].

والنوع الثاني هو الفناء عن شهود السواء، وهو فناء كثير من السالكين، تنجذب قلوبهم بقوة إلى محبة الله وذكره، ولضعفهم أمام هذه الجذبة ينسون في شهودهم لله ما سوى الله، ولا يشعرون لا بالذكر ولا بالعبادة لأن قلوبهم مشغولة بشهود الله، وهذا فناء فيه نقص، لما فيه من غيبة العقل وعدم التمييز[3]، لأن أصحابه لما استرسلوا في تلك الحال تجاوزوا مرحلة فناء الإرادة إلى فناء الشعور تجاوز الحد وتجاوز الاعتدال، فمنهم من لا يستمر ويريد أن يبقى على ذلك الحال، ومنهم من يعبر إلى حالة الصحو والبقاء وهو المقام العالي الذي تحلى به الرسل[4].

أما النوع الثالث: الفناء في الوجود وهو فناء أصحاب الحلول والإتحاد، يشهد صاحبه بأن لا موجود إلا الله بمعنى أن وجود الخالق هو وجود المخلوق فلا فرق بين العبد والرب. وهذا النوع كفر وخروج عن الملة فلا جدال فيه ولا تبرير[5].

هذا مفهوم الفناء عند بعض الطائفة، فما هو مفهوم الفناء عند شيخنا الجيلاني؟

**ب ــ مفهوم الفناء عند الجيلاني:**

لقد أشاد ابن تيمية بعبد القادر الجيلاني وقال عن طريقته إنها الطريقة الشرعية الصحيحة، واختار من كتبه كتاب فتوح الغيب وقام بشرحه، وهو الكتاب الذي تحدث فيه الشيخ الجيلاني عن

---

[1]- عبد العزيز بي عبد الله الراجحي، شرح العبودية لشيخ الإسلام ابن تيمية، ص145.

[2]- المرجع نفسه، ص146.

[3]-المرجع نفسه، ص149.

[4]- محمد عبد الله كامل، التصوف بين الإفراط والتفريط، ص235.

[5]- عبد العزيز بي عبد الله الراجحي ، المرجع السابق، ص151.

مفهوم الفناء وأفاض في شرحه، فما هو الفناء الشرعي الذي تحقق به الجيلاني ودعا إليه؟

إنه فناء العبد عن أهوائه و تغليب إرادة ربه، بل هو فناء عن إرادته فلا يبقى إلا بإرادة الله، وذلك بالإلتزام بأوامر الله ونواهيه، وهذا هو السبب الذي جعل طريقة الشيخ الجيلاني سهلة بسيطة ومفهومة وتتفق مع روح الإسلام، ولم يشتط في التنظير لطريقته كما فعل غيره، بل حصرها في مقامات يربط بينها وبين المعروف عند أهل السنة[1].

وإذا كان الفناء من المقامات العليا عند الشيخ، فلأن الذي بلغه متحقق بالكتاب والسنة، فهو عبد الأمر والنهي، وهذا المتحقق يفنى عن الخلق والهوى والإرادة، فيصل إلى التوحيد الخالص والحنيفية السمحة بعيدا عن الإتحاد والحلول وغيرها[2].

ذكر الشيخ الجيلاني في المقالة الأولى من كتابه فتوح الغيب: "لابد لكل مؤمن في سائر أحواله من ثلاثة أشياء، أمر يمتثله ونهي يجتنبه وقدر يرضى به[3]،ويشرح ابن تيمية هذه المقالة بقوله: «...وكلام الشيخ قدس الله روحه يدور على هذا القطب وهو أن يفعل المأمور ويترك المحظور، ويخلو في ما سواهما عن إرادة لئلا يكون له مراد غير فعل ما أمر الله به، ومالم يؤمر به العبد بل فعله الرب عز وجل بلا واسطة العبد أو فعله العبد بلا هوى، فهذا هو القدر الذي عليه أن يرضى به»[4]. والمقصود من أن يفعل المأمور ويترك المحظور ويخلو في ما سواهما من الإرادة، فلا يكون له مراد غير ما أمر الله به: أن هذا المعنى هو المحور الذي يدور عليه مفهوم الفناء عند الشيخ الجيلاني، فالسالك عبد الأمر والنهي فلا يخرج عن هذين المجالين، وبذلك لا يكون له مراد غير فعل ما أمر الله به. وما كان من فعل الله وما فعله العبد بلا هوى فهذا هو القدر الذي عليه أن يرضى به، أي التسليم فيما فعله الله[5].

---

[1]- عبد المنعم الحفني، الموسوعة الصوفية، أعلام التصوف و المنكرين عليه والطرق الصوفية، دار الرشاد، القاهرة، ط1 ،1992، ص114

[2]- المرجع نفسه والصفحة،

[3]-عبد الفادر الجيلاني، فتوح الغيب، ص6و7.

[4]-ابن تيمية، الفتاوى،ج10، ص458و459.

[5]- نفس المرجع، ص459.

وأما المباحات التي لم يؤمر بفعلها ولا بتركها فهذه فيها درجات، وأعلاها درجة المقربين الذين يفعلون من المباحات إلا ما يستعينون به على الطاعات[1].

أما من فعل المباحات مع الغفلة أو فعل فضول المباح الذي لا يستعان به على طاعة مع أداء الفرائض واجتناب المحارم باطنا وظاهرا، فهذا من المقتصدين أصحاب اليمين[2]. والفناء عن الإرادة عند الشيخ الجيلاني هو طريق الخاصة، طريق المقربين، وذلك بأن لا يفعل المقرب إلا ما أمر الله به ولا يريد إلا ما أمر الله ورسوله بإرادته، ويحبه الله ويرضاه، ويريده إرادة دينية شرعية[3].

وكما هو معلوم أن حقيقة التوحيد، أن لا يحب العبد إلا الله، فيحب ما أحبه الله لله ويبغض ما يبغضه الله لله[4]. والأصل في ديننا أن يكون المؤمن مريدا محبا لما أمر الله بإرادته ومحبته، كارها مبغضا لما أمره الله بكراهته وبغضه.و في هذا الأصل هناك مراتب:

المرتبة الأولى والعليا: هي للكمل من المؤمنين يريدون ماأمرهم الله ورسوله بإرادته ويكرهون ما أمرهم بكراهته، وليس عندهم حب ولا بغض لغير ذلك. وهذه حال أفضل البرية «محمد وإبراهيم صلى الله عليهما وسلم»[5]، وعندما لا يتبين الأمر الشرعي في موقف ما، فإن الشيخ الجيلاني يأمر إما بالرجوع إلى ما يلهمه قلبه وإما يتبع القضاء والقدر أو يستخير الله كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم أصحابه الاستخارة في الأمور كلها[6]. وفي رأي ابن تيمية أن إلهام السالك العامر بالتقوى بالتقوى دليل في حقه إذا اجتهد في الأدلة الشرعية و لم يجد ترجيحا للفعل[7].والمؤمن تتجلى له أمور صادقة[8] كما ثبت في الصحيح عن أبي هريرة قال: "قال رسول الله ﷺ إن الله قال: «من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما إفترضته عليه.ومازال عبدي يتقرب

[1] - ابن تيمية، الفتاوى، ص460.
[2] - المرجع نفسه، ج10، ص460.
[3] - المرجع نفسه،ص463 و 464.
[4] - المرجع نفسه، ص465.
[5] - المرجع نفسه، ص467.
[6] - المرجع نفسه، ص471.
[7] - المرجع نفسه، والصفحة.
[8] - المرجع نفسه، ص472.

إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته»[1].

الإشكال يقع إذن عندما يريد السالك ترشيح فعل معين لا يوجد فيه دليل شرعي واضح، وهذا موضع يغلط فيه كثير من خاصة السالكين وشيوخهم فضلا عن عامتهم، ويتفاوتون في ذلك بحسب علمهم بالأحكام الشرعية وطاعتهم لها[2].

وللإرادة ركنان هما: المراد وهو الله عز وجل، والطريق إلى المراد وهو الشريعة. [3] فلا ينفع للمريد أن يعبد أي معبود ولا أن يعبد الله بأي عبادة كانت.

والسالكون طريق الإرادة مخطئون تارة في المراد وتارة في الطريق إليه، فالذين يعظمون غير الله يسألون غيره ويخافون ويرجون غير الله، هؤلاء من اللذين أخطأوا في المراد[4]. بينما العبادة هي كمال كمال الحب والتعظيم. والفناء في هذا هو أن تفنى بعبادة الله عن عبادة ما سواه بطاعته وسؤاله وخوفه ورجائه وحبه[5].

أما المخطئون في الطريق فإنهم يريدون الله بإتباع ما يخالف الشرع، ظنا منهم بأن ذلك يرضيه، فيفنى أحدهم تبعا لذوقه ووجده المخالف للشرع[6].

ولذلك يأمر الشيخ الجيلاني السالك بأن لا تكون له إرادة تبعا لهواه أبدا، بل يريد ما يريده الله عز وجل. وعليه فإن طريقة الإرادة يخاف على صاحبها من ضعف العلم، فقد يترك السالك إرادة

---

[1]-أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1989، ج11، كتاب الرقائق، باب التواضع، الحديث رقم6502، ص414.

[2]-ابن تيمية، الفتاوى، ص484.

[3]- المرجع نفسه،ص486.

[4]- المرجع نفسه، ص487

[5]- المرجع نفسه، ص 488.

[6]- المرجع نفسه، والصفحة.

شرعية لجهله بها ويقدم على إرادة ظنا منه أنها شرعية، فيقع في الضلال[1].

ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها، فإذا تفقه السالك وتعلم الأمر والنهي قدر اجتهاده فهذا مستطاعه[2].لقوله تعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾[3].

وقول الشيخ الجيلاني «وعلامة فناء إرادتك بفعل الله أنك لا تريد مرادا قط، أي لا تريد مرادا لم تأمر بإرادته »[4].

ويعقب ابن تيمية على كلام الشيخ بأن كثيرا من السالكين يظنون أن الكمال في أن لا يكون للعبد إرادة أصلا، ومن يأمر بترك الإرادة مطلقا فقد قال بما ليس بمقدور ولا مأمور، فلا بد للإنسان من إرادة وإلا لما مدح الله تعالى[5] المريدين للآخرة بقوله: «ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا»[6] ،[7]. إن أساس طريقة الجيلاني في التصوف هو بلوغ مقام الفناء، وذلك بأن يعمل السالك على أن لا تكون له إرادة مع إرادة الله تعالى من حيث هواه، بإلتزام كتابه وسنة نبيه، والبقاء المقابل للفناء هو البقاء بالشريعة وتقديمها على أي ذوق صوفي يمكن أن تكون فيه مخالفة لها.

وعند الشيخ الجيلاني إذا كانت الشريعة المطلوبة في أعلى المقامات فهي ألزم في المقامات الأدنى، فالمؤمن يقظ في دقائق حياته اليومية حتى لا يقع في الشرك الخفي،كالاطمئنان إلى الكسب ونسيان فضل الله تعالى، لأن نسيان فضل الله تعالى شرك خفي، والعقيدة الصحيحة هو أن يؤمن العبد بأن الله وحده هو الرزاق والمعين على الكسب والميسر له، فإذا كتب لعبده شيئا من الكسب فإن الله يوجد عنده الشهوة لتحصيله، فيكون سعيه إليه واستحقاقه له، فيسوقه له ثم يوفقه إلى أن هذا

---

[1]- المرجع نفسه، ص489

[2]- ابن تيمية، الفتاوى، ص489.

[3]-سورة التغابن، الآية16.

[4]- عبد القادر، فتوح الغيب، ص13.

[5]- ابن تيمية، المرجع السابق، ص 494.

[6]- سورة الإسراء، لآية 19.

[7]-ابن تيمية، المرجع نفسه، ص495.

الكسب من الله، هو الذي ساقه له ورزقه به[1]وهذا الإدراك يكون إدراك ذوقي، وهذا هو السر في عدم نسيان أن الله هو المحرك لكل شيء، فالإدراك الذوقي يجعل القلب يقظا ومتصلا بالله في كل حين. والذوق هو فضل من الله وموهبة للعبد بعد بذل المجهود في البداية وإثبات الصدق، لأن فتح كل باب خير بذل المجهود وتقديم الصدق في الطلب... وهبة الذوق تيسر الاستمرار والصعود في سلم التوحيد إلى أن يتحقق بالتوحيد الكامل لله، وهذه غاية المتفردين. فهذا العطاء يمكّن السالك من التخلص من نوازع نفسه وعندها يتحرر ليتدرج في مراحل الفناء، وهذا ما عناه حديث النوافل.

والإدراك الذوقي هو درجة من درجات العقل كما صرح بذلك المحاسبي، حيث يقسم العقل إلى عقل الغريزة وعقل البصيرة، فعند المحاسبي يتدرج السالك في مراحل السلوك التي تبدأ من الطاعة التي فهمها عقل الغريزة، ولا يزال يتدرج حتى يسلّمه عقل الغريزة إلى عقل البصيرة...وبه يطيع الله ويريد بإرادته الله لا إرادة هواه، فالعقل البصري يستوعب العقل الغريزي ويكون نتيجة لجهوده في الطاعة وثمرة من ثمار تحصيل الفهم وتتويج المجهود[2]. كما قسم "طه عبد الرحمن" العقول إلى ثلاثة: عقل نظري وعقل مسدد وعقل مؤيد، وهذا الأخير هو العقل الذوقي. وبعد عرض أوصافه يقول عنه أنه أعقل العقول الثلاث[3]. إن التحقق التحقق لا يحصل إلا بطريق الإتيان بالنوافل المعززة للفرائض...وأثناء هذه الزيادات في الأعمال تلابس السالك أحوال خاصة هي أحوال المحبة وعلى قدر هذه المحبة يكون حظ السالك من القرب. فالتحقق في جوهره هو تجربة محبة[4] . وعليه سنتطرق إلى التعرف على أهم مظاهر الفناء مما يزيدنا فهما وتعمقا في معانيه.

**مظاهر الفناء:**

يظهر الفناء ويبرز في أهم خصلتين تلازم الفاني في التوحيد وهما: المحبة و العبودية.

**1-المحبة:**

[1]-عبد المنعم حنفي، الموسوعة الصوفية، اعلام التصوف والمنكرين عليه، والطرق الصوفية، ص115.

[2]-مجدي محمد إبراهيم، التصوف السني، ص254.

[3]-طه عبد الرحمان، العمل الديني وتجديد العقل، ص160.

[4]-المرجع نفسه، ص158.

**مفهوم المحبة:**

**المحبة لغة:** الحب نقيض البغض، تحبب إليه أي تودد إليه والمحبة اسم للحب[1].

**المحبة اصطلاحا:**

إن التعريفات العديدة التي يذكرها الصوفية تدور كلها حول فكرة رئيسة مشتركة، وهي فناء الإنسان عن نفسه وأوصافه وحظوظه، وإنكار ذاته وإيثاره لله على ما سواه .كل هده المواصفات تعد شروطا أساسية ينبغي أن يتحقق بها المحب لتصح محبته[2]. فنجد الجنيد يصف المحب بأنه: «عبد ذاهب عن نفسه متصل بذكر ربه، قائم بأداء حقوقه، ناظر إليه بقلبه، أحرق قلبه أنوار هويته وصفا شربه من كأس وده، وانكشف له الجبار من أستار غيبه، فإن تكلم فبالله وإن نطق فعن الله وإن تحرك فبأمر الله، وإن سكن فمع الله، فهو بالله ولله ومع الله»[3]. وعرفها الحلاج: «حقيقة المحبة: قيامك مع محبوبك بخلع أوصافك»[4] ويقول القشيري: «أما محبة العبد لله تعالى فحالة يجدها من قلبه تلطف عن العبارة وقد تجمله تلك الحالة عن التعظيم له وإيثار رضاه، وقلة الصبر عنه والإحتياج إليه وعدم القرار من دونه ووجود الإستئناس بدوام ذكره له»[5].

ويعرفها أبو يزيد البسطامي: «المحبة استقلال الكثير من نفسك واستكثار القليل من حبيبك»[6]. وقال الشبلي: «سميت المحبة محبة لأنها تمحو ما سوى المحبوب»[7]، كما قال عبد الله القرشي: «حقيقة المحبة أن تهب كلك لمن أحببت فلا يبقى لك منك شيء»[8].

وهذه المفاهيم للمحبة هي نفسها مضمون مفهوم الفناء، خاصة ما عناه الجيلاني حيث يقول

---

[1]- ابن منظور، لسان العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، المجلد الأول: أ ب ت ث، ص274-275.

[2]-محمد مصطفى حلمي، ابن الفارض والحب الإلهي، دار التعارف، ط2، دت ص235.

[3]- القشيري، الرسالة القشيرية، ص355.

[4]- المرجع نفسه ،ص352.

[5]- المرجع نفسه، ص149.

[6]- المرجع نفسه، ص150.

[7]- المرجع نفسه، ص351.

[8]- المرجع نفسه، والصفحة.

بفناء الإرادة، ويعني بها لا يبقى لك منك شيء، بل الكل بالله ولله ومع الله. ونجد مفهوم المحبة عند ابن القيم أنها تكون بزوال العلل الباعثة على الأمر والنهي من الأغراض والحظوظ العاجلة، بل يصير صاحبها واثقا مطمئنا إلى خالقه سبحانه راضيا بحسن تدبيره، غير متهم له في حال ويتصل فقره وفاقته به سبحانه دون من سواه، ويتصل خوفه ورجاؤه وابتهاجه به وحده، فلا يخاف غيره ولا يرجو سواه[1]. أما السهروردي صاحب العوارف فيقسم الحب إلى حبين حب عام وحب خاص.

الحب العام يفسر بامتثال الأوامر، وقد يكون من باب العلم بالنعم، وهذا الحب من المقامات وللعبد له فيه دخل فهو مكتسب. أما الحب الخاص فهو محبة الله الناشئة عن مطالعة الروح وفيه تكون السكرات وهو هبة من الله لعبده وإصطفاءه له وليس للكسب فيه مدخل.

ومن صحت محبته تحقق بسائر الأحوال من الفناء والبقاء وغيرها مما يمر به السالك في رحلته الصوفية[2].

**المحبة عند الشيخ الجيلاني :**

المحبة عند الشيخ الجيلاني لا تختلف في مفهومها عما قاله غيره من أهل الطائفة، فيقول في أحد مجالسه: "إعلم أن الأشياء كلها محركة بتحريكة ومسكنة بتسكينة، إذا ثبت له هذا استراح من ثقل الشرك بالخلق واستراح الخلق منه، لأنه لا يعب عليهم ولا يطالبهم بشيء مما يليه وإنما يطالبهم بما طالبهم به الشرع فحسب"[3]. ونلاحظ هنا أن كلام الشيخ في المحبة يكاد لا يختلف عنه في الفناء الذي يقول فيه إن العبد عبد الأمر والنهي لا عبد هواه.

ويقول عن المحب بأنه لا يملك شيئا، يسلم الكل إلى محبوبه... والمحب للحق عز وجل الصادق في محبته يسلم لله نفسه وماله وعاقبته ويترك اختياره فيه وفي غيره [4]ويقول إن المحبة لا تكتمل

---

[1]-ابن القيم، الفوائد، ص261.

[2]-محمد مصطفى حلمي، ابن الفارض والحب الإلهي، ص171.

[3]-عبد القادر الجيلاني، الفتح الرباني، ص134

[4]- المصدر نفسه، ص134.

للمحب حتى تنسد الجهات في حقه فلا تبقى له إلا جهة واحدة هي جهة محبوبه... [1]

ويقول في مجلسه الثاني والستون عند كلامه في التوحيد: «يا أحمق إدّعيت محبته وتطلب دفع الضرر وجلب النفع، تنح ما أنت من القوم، أنت عبد الخلق عبد النفس والهوى والشهوات»[2].

إن محور الفناء والمحبة والمعرفة عند الجيلاني هو محور واحد لا ثاني له وهو العبودية الخالصة لله، فهو يقول في المحبة: «العارف بالله تعالى المحب له الناظر إليه بعين قلبه، الذي يرى الإحسان والإساءة منه لا يبقى له نظر إلى من يحسن إليه ويسيء من الخلق، إن ظهر منهم إحسان رآه بتسخير الحق عز وجل وإن ظهرت منهم إساءة رآه بتسليطه، ينتقل نظره من الخلق إلى الخالق...»[3] .

إن لهذه المحبة مقومات أساسية حتى يوصف بأنها حقيقية وكاملة وهذه المقومات والخصائص هي: الصفاء عن الطمع والصدق والتجرد من كل السوى.

فالصفاء عن الطمع في الحب الصوفي يزيد على المحبة العامة التي هي الطاعة ومعلوم أن الطاعة واجبة عند العوام وهم ينتظرون جزاء عليها من الله، أما المحبة الخالصة، فهي مجردة عن كل غرض، فهي حب لذات الله تعالى وإلا كانت محبة معلومة، فالمحبة الصحيحة هي الصافية عن كل مطمع، أما الأساس الثاني للمحبة الحقيقية هوالصدق وهو ملازم للسالك في كل مراحل الرحلة الصوفية، والصديقية هي الدرجة التي تلي درجة النبوة ويتصف صاحبها بالصدق في جميع أقواله وأحواله[4]، والمقوم الثالث والأخير هو التجرد من كل السوى فكل ما يبذل السالك من مجهود يجب أن يتلاشى تماما في الله...فالعبادات المعروفة لا يكفي أن تؤدى بطريقة تقليدية وإنما ينبغي أن تنتهي إلى غيبة المتعبد في ذات الله وإلا كانت مجوسية محضة كما وصفها الواسطي[5][6].

تتطلب رحلة التحقق بذل الوسع في تطهير النفس، وذلك عن طريق إقامة النوافل ودوامها،

---

[1] – المصدر نفسه، والصفحة.

[2] – عبد القادر الجيلاني، الفتح الرباني، ص242.

[3] – المصدر نفسه، ص81-82.

[4] – إبراهيم بسيوني، الإمام القشيري، ص269.

[5] – المرجع نفسه، ص270.

[6] – ذكرت مقولته في موضع آخر من هذه الرسالة، ص 43

بعد أداء الفرائض على الوجه الأكمل فهذه النوافل التي يؤديها السالك بإختياره تقيه من النقصان، وكلما واصل السير بهذه الزيادات تبدأ تلابسة أحوال المحبة، وعلى قدر هذه المحبة يكون حظ المتقرب من المحبة، لأن التحقق في جوهره هو تجربة محبة[1].إن ما تقدم هو تفسير للحديث القدسي الخاص بالنوافل، فالتغلغل في العمل الشرعي يترل صاحبه مترلة أعمق في المحبة فينشغل بالله عمن سواه ويتخلص من نوازع نفسه وتحرق نار المحبة كل الحجب بين المحب وربه، ومن الناس من تسعفه كرامة الله فتوصله إلى هذا المقام وتجذبه جذبا ومنهم من يتركوا ليحققوا سيرهم ويبذلوا جهدهم لبلوغ مرامها[2]،ولهذا كان هناك أنواع السالكين في المحبة، فما هذه الأنواع وما سبيل كل نوع منهم؟

**أنواع الصوفية في المحبة:**

هناك نوعان من الواصلين المتحققين بالمحبة، وأطلقت عليهم مسميات لكن تصب كلها في مضمون واحد: من هذه المسميات صاحب الولاية الصغرى وصاحب الولاية الكبرى، والمحبين والمحبوبين، والسالكين وأهل الإنابة والهداية، وأهل المشيئة والجباية والمجذوبين، وسنتعرف على كل قسم فيمايلي:

**أ_المحبوبين:**

هم قوم وصلوا بكرامة الله إلى طاعة الله وطويت أمامهم السبل والمراحل وهدوا إلى الله من دون جهد ولا معاناة[3].

ويذكر الشيخ الجيلاني مكانة كل من المحبوب والمحب موجها كلامه للسالك طريق المعرفة: «وإن تصحب بعض ملوك المعرفة حتى يدلك ويعرفك ويحمل عنك ثقلك، تمشي في ركابه فإذا تعبت أمر بحملك أو أردفك خلفه.إن كنت محبا أردفك خلفه وإن كنت محبوبا أركبك من سرجك وركب هو خلفك[4]... والمجذوب تجذبه المشيئة الإلهية وتأخذه عما هو فيه إلى مرتبة القربة، قد يبد ولأول

---

[1]-طه عبد الرحمان، العمل الديني وتجديد العقل، ص158.

[2]-نقلا عن :عبد الوهاب فرحات، أبو الحسن الشاذلي ومدرسته في التصوف، رسالة الماجستير، ص138.

[3]-محمد سعيد رمضان البوطي، الحكم العطائية شرح وتحليل، دار الفكر، دمشق، ط1، 2004، ج5، ص342.

[4]-عبد القادر الجيلاني، الفتح الرباني، ص188.

وهلة إن طريق المجذوب سهل ميسر لا عناء فيه وبأنه يصل إلى منتهاه في لمح البصر والحقيقة ليست كذلك، فهو حينما يجذب إلى مرتبة القربة، يؤخذ بما يؤخذ به المجتهد "المحب" من التربية والتصفية حتى تتم له ولاية الله...وحسب طبيعة كل مجذوب تكون مدة التزكية هذه...فليس من طبيعة البشر أن ينتقل فجأة من أدنى درجات المعرفة إلى أعلاها دون إعداد نفسي وروحي وعقلي. يقول الحكيم الترمذي: «فكذلك شأن هؤلاء المجذوبين، يجذبهم الله إليه على طريقه، فيتولى إصطفاءهم وتربيتهم، حتى يصفي نفوسهم الترابية بأنواره، كما يصفى جوهر المعدن بالنار، حتى تزول ترابيتهم وتبقى النفس صافية.ويكون ذلك بالتدرج لأن القلوب والنفوس لاتحتمل مرة واحدة ذلك التحول»[1]. ومثل هذا الولي يؤتيه الله الإلهام والصديقية. والمجذوب لا يعاني كبد المجاهدة، بل يحرر من رق النفس وبما أنه لم يبذل الجهد فلا يعاني من حجاب رؤية سعيه، فهو محرر من عبودية ذلك.

أما المرتبة الثانية في الولاية فهي ولاية المحبين ففيما تختلف عن سابقتها وعلى أي أساس هذا الترتيب؟

**ب_المحبين:**

وهم قوم وصلوا بطاعة الله إلى كرامة الله، وهم المهتدون بالإنابة، يقبل الواحد منهم إلى الله تعالى يريد صدق السعي إليه، فيبذل أصدق الجهد في تسليم نفسه لله، حتى يستنفذ كل ما في طاقته من جهد، فيرحمه الله ويهديه للوصول إليه. إن هذا الولي المحب ينفق جهده ووسعه لرعاية حق الله. إنها معاناة طويلة وشاقة مع النفس ليتحرر من رقها[2].وهو يعلم علم اليقين أنه لن يبلغ بصدقه منتهاه إلا بمعونة خالصة من الله، وأنه لو ترك وحده ويبذل ما في وسعه فلن يصل، وهنا يقف وقفة المضطر ليدعو الله دعاءً خالصا فيجيبه ربه وتدركه رحمته فيعتق من رق نفسه ويصبح في محل الأحرار الكرام[3].

---

[1]- عبد الفتاح عبد الله بركة، الحكيم الترمذي، ونظريته في الولاية، من مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية، دط، دت، ج2، ص113و114

[2]- المرجع نفسه، ص104.

[3]- المرجع نفسه، ج2، ص99.

قد يتبادر تسائل الى أذهان الكثيرعن إستحقاقية المجتبين نعمة الإجتباء حتى إمتازوا بذلك عن عامة الناس .هناك إجتهادات لتفسير ذلك منها :

أن قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴾[1]. يعني أنها مشيئة الله التي لا تعلل كما بينه قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾[2].

ورغم ذلك فهناك من يرى أن الجذب أساسه أهلية المجذوب لذلك ،كأن يكون متخلصا من رعونات النفس ومتحررا من آفة الاستكبار والتعصب للذات. ولا يشترط عدم التورط في المعاصي مادام متحررا من رعوناته[3].وهناك من يرى أن الأمر مرده استعدادا فطريا، من ملكات وسجايا خلقية وحظ وفير من عقل المعرفة والبصيرة، فالمجتبي له حظ عظيم من المواهب العقلية، كما نجد المجتبي دائما قد أوتي محاسن الأخلاق جبلة وطبعا وفطرة، فيكون الانقياد للطاعة سهل عليه ولا يضطر إلى بذل جهد في حراسة نفسه، فإذا سار في طريق الله تلين له نفسه ولا يحتاج إلى كثير عناء في مجاهدتها[4] .والمجذوب يحتاج إلى مدة في جذبه كما يحتاج المجتهد إلى مدة في صدقه.

وخلاصة ما تقدم أن الولاية تنقسم إلى قسمين رئيسيين:

قسم السالكين: الذي يبدأ فيه السالك "إيجابيا فعالا ويظل يبذل أقصى الجهد، مدفوعا بعاطفة قوية صادقة، وفكرة ثابتة مستقرة وإرادة متواصلة مستمرة، نحو الوصول إلى الله، حتى إذا وصلت به إرادته إلى مرحلة من مراحل الجهد، هي أقصى ما يستطيع، أخذته المنة الإلهية فحاطته بعنايتها، ونالته بنفحاتها وعطاياها.

أما القسم الثاني فهو قسم المجذوبين: الذي يبدأ فيه السالك سلبيا قابلا، لكنه ما إن تلمسه المنة الإلهية بكشفها وبنفحاتها حتى تنطلق جميع طاقاته الكامنة، وتنفجر كل أشواقه الحبيسة في سيل إيجابي عارم، لا يكاد يهدأ ولا يستريح حتى يصل إلى غايته، وينتهي إلى منتهاه تحمله المنة بألطافها،

---

[1]- سورة الشورى، الآية 13

[2]-سورة الجمعة، الآية، 4.

[3]- محمد سعيد رمضان البوطي، الحكم العطائية شرح وتحليل، ج5 ،ص345.

[4]- عبد الفتاح عبد الله بركة، المرجع السابق، ج2، ص124-125.

وتمهد له الطريق، وتسرع به في المسير" [1].

وللإشارة فإن شيخنا الجيلاني حسب ما يرويه الشيخ أحمد خادم الشيخ حماد الدباس يقول: "دخل الشيخ عبد القادر على الشيخ حماد الدباس يزوره، وكان الدباس قد رأى في منامه أنه إصطاد بازيا، فلما دخل الشيخ عبد القادر، نظر إليه الدباس نظرة ثاقبة، فانخلع قلبه...وخرج من عنده هائما على وجهه"[2].

إنها جذبة روحية بفعل نظرة الدباس المشحونة بالطاقة والتي عرف بعدها الإمام بلقب باز الله الأشهب، طار بعدها عقل الإمام الجيلاني، حتى أنه عرف باسم: عبد القادر المجنون[3].هذا التحول الروحي الذي يحدث لأحدهم بعد سماعه لهاتف معين أو وقوع حادثة خاصة أوحتى نظرة كتلك التي نظرها الدباس لعبد القادر الجيلاني، كأنه انفجار لعوامل روحية كامنة في نفس هذا الصوفي أو ذاك، هذه عوامل كانت تنتظر إشارة لبدء العروج إلى المقامات الروحية العالية[4].

**مقتضيات المحبة:**

إن المتأمل في الحديث القدسي الخاص بالنوافل، يجد أنه حصر أسباب محبة الله في أمرين: أداء فرائضه، والتقرب إليه بالنوافل، فأداء الفرائض أحب ما يتقرب به المتقربون إلى الله ثم إلتزام النوافل، ولا يزال المحب يتقرب بالنوافل حتى يصير محبوبا لله فتوجب محبة الله له زيادة محبته هو لله فوق محبته الأولى، فتشغل قلبه عن الاهتمام بغير محبوبه وتملك عليه روحه وزمام قلبه...ولا شك أن هذا المحب يصير يسمع بمحبوبه ويبصر به ويبطش به ويمشي به، فهو في قلبه ومعه وصاحبه. والباء هنا للمصاحبة وهي المصاحبة الخاصة وهي مسألة حالية لا علمية محضة[5].

ذكر مرة الإمام الجيلاني أنه يريد حياة لا موت فيها فلما سأل عن معنى ذلك أجاب قائلا:

---

[1]- عبد الباقي مفتاح، أضواء على الشيخ عبد القادر الجيلاني وانتشار طريقته، ص133- 134.

[2]- عبد الباقي مفتاح، أضواء على الشيخ عبد القادر الجيلاني وانتشار طريقته، ص80.

[3]-المرجع نفسه والصفحة.

[4]- المرجع نفسه، والصفحة.

[5]-ابن القيم، الجواب الكافي لمن يسأل عن الدواء الشافي، دار الفكر، بيروت، دط، 2002، ص184.

"حياتي بفعل ربي عز وجل بلا وجودي فيه، والموت في ذلك وجودي معه، فكانت هذه الإرادة أنفس إرادة منذ عقلت". فهو يريد أن تموت إرادة نفسه فلا تبقى لها حظ في الحياتين الأولى والآخرة[1] يبقى بإرادة ربه حيا فيه وفناءً في توحيده". ولذلك يقول في شرحه لهذا الحديث القدسي في أحد مجالسه موضحا كيفية حصول المحبة: "يبصر جميع أفعاله بالله تعالى وله، يخرج من حوله وقوته ورؤية نفسه وغيره، تصير حركاته وحوله وقوته بالله تعالى لا به ولا بسائر الخلائق، يعزل نفسه ودنياه وأخراه كله طاعة، فلا جرم تقربه طاعته، تكون سببا لمحبة الله له، بالطاعة يحب ويقرب"[2] والسالك الذي يتقرب بالنوافل ويستمر عليها، تستولي آثار الأعمال على وجدانه، فتبدأ هي في التأثير على الجوارح فيتحقق لها منفعتان:

**أ ــ الطمأنينة:** فيشعر بالأمن ويمنح قوة التحمل والطاقة في السير ويشتد عنده اليقين[3]من حصول الوصول.

**ب ــ المحبة:** فينشغل بالمحبوب عمن سواه وبالإشتياق إليه والتذلل له والرضى منه[4].

والسالك هاهنا يكاد يوجب مزاولة النوافل لأنها مطية إلى الوصول ولهذا يختلف عمن يمارس دون أن يجعل لمبدأ الوصول أي اعتبار[5].فعلى قدر عناية السالك بالتقرب بالنوافل يفتح له باب الوصول إلى معرفة الله وحصول المحبة الإلهية، فتتولى الإرادة الالهية جميع أقواله وأفعاله وجميع حركاته وسكناته فتخلع عليه أوصاف القرب حتى لا يرى شيئا إلا ويرى الحق فيه ولا يعرف شيء إلاويعرفه به[6]فالتحقق لا يحصل الا بطريق الإتيان بالنوافل المعززة للفرائض[7].

ان المحبة لازمة لجميع المقامات ،فهي روح كل مقام وكل منزلة وكل عمل، فلو خلا منها

---

[1]-عبد القادر الجيلاني، فتوح الغيب، ص139.

[2]- المصدر نفسه، ص130.

[3]-طه عبد الرحمان، العمل الديني وتجديد العقل، ص126.

[4]- المرجع نفسه، والصفحة.

[5]- المرجع نفسه، ص125.

[6]-المرجع نفسه، ص153.

[7]- المرجع نفسه. ص158.

أحدهم لصار ميتا لاروح فيه،فنسبتها للأعمال كنسبة الإخلاص إليها، وهي حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله، لأن التأله هوالتعبد، والتعبد آخر مراتب الحب وهو المظهر الثاني للفناء. إذن المظهر الثاني اللصيق بالسالك الفاني في التوحيد هو العبودية، فما مفهومها وماذا عن علاقتها الوطيدة بالفناء؟

**2 ــ العبودية:**

**مفهوم العبودية:**

**1 ــ المعنى اللغوي للعبودية:**

من عبد العبد الإنسان حرا كان أو رقيقا. يذهب بذلك أنه مربوب لباريه عز وجل.

ويقال فلان عبد بين العبودة،والعبودية والعبدية ،وأصل العبودية الخضوع والتذلل.

وفي قوله تعالى:"إياك نعبد" أي نطيع الطاعة التي يخضع معها، وقيل إياك نوحد.

ومعنى العبادة في اللغة: الطاعة مع الخضوع ومنه طريق معبد إذا كان مذللا بكثرة الوطء[1]،

**2 ــ مفهوم العبودية اصطلاحا:**

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية :"العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب، فهي تتضمن غاية الذل لله تعالى بغاية المحبة له." [2]وأعلى مراتب الحب وأعمقها التتيم، يقال:تيم الله أي عبد الله، فالمتيم المعبد لمحبوبه. والخضوع بدون محبة ليس عبودية والحب بدون خضوع بعيد عن العبودية[3] فالإنسان في عبادته لله يجمع بين منتهى الحب ومنتهى الإذلال والخضوع لله.

ويذكر الإمام القشيري في رسالته بعض الأقوال في العبودية منها: «العبودية: ترك الاختيار فيما يبدو من الأقدار»[4]، «والعبودية:التبرؤ من الحول والقوة، والإقرار بما يعطيك ويوليك من الطول

---

[1]- ابن منظور، لسان العرب، مج2، ص600و 661.

[2]- عبد العزيز عبد الله الراجحي، شرح العبودية، ص17.

[3]-المرجع نفسه، ص 18

[4]-القشيري، الرسالة القشيرية، 233.

والمنة»[1]، «ويقال العبودية معانقة ما أمرت به ومفارقة ما زجرت عنه»[2]، «وقيل: العبودية شهود الربوبية».

ويقول النصرآباذي: «العبودية إسقاط رؤية التعبد في مشاهدة المعبود»[3]. والتعبد هو فوق التتيم، فصار المحب كله محب لمحبوبه ظاهرا وباطنا فقد ملك المحبوب رقه، فلم يبق له شيء من نفسه وهذا هو حقيقة العبودية[4].

**حقيقة العبودية عند الشيخ الجيلاني:**

إن مفهوم العبودية عند الجيلاني يوافق التعريفات السابقة في مضمونها، فهي التبرؤ من الحول والقوة وتسليم كلي لله وإسقاط للتدبير وترك الإرادة، كما يقول في أحد مجالسه عن حقيقة العبودية أن: «تخرج من حولك وقوتك، ولا تأخذ ولا تعطي ولا تحرك ولا تسكن إلا بحول الله وقوته، تفنى بين يديه، تسلم أمرك إليه، توافقه فيك وفي الخلق فلا تدبر مع تدبيره ولا تحكم مع حكمه ولا تختار مع اختياره»[5]. كما تعني العبودية عند الجيلاني الرضا بأفعال الله وموافقة أقداره يقول: «أين أنت من عباد الله عز وجل الذين تحققت لهم العبودية و الرضا بأفعاله، الآفات تنزل عليهم وهم كالجبال الرواسي، تنزل عليهم وإليهم وهم ينظرون إليها بعين الصبر و الموافقة[6].

وتصح العبودية عند الشيخ الجيلاني بالتسليم والتفويض التام لله وذلك بإمتثال الأوامر و الإنتهاء عن النواهي، فأساس العبودية التوحيد والثبات على ذلك بالعمل الصالح. يقول في ذلك: «عليك بالتسليم والتفويض وترك حولك وقوتك واعتراضك وشركك بالخلق وبنفسك، عليك بصحة العبودية وهي امتثال الأمر و الانتهاء عن النهي والصبر على الآفات، أساس الأمر التوحيد

---

[1]- المرجع نفسه ، ص232.

[2]- المرجع نفسه، والصفحة.

[3]- القشيري، الرسالة القشيرية، ص235.

[4]-ابن القيم، مدارج السالكين، ص243.

[5]-عبد القادر الجيلاني، الفتح الرباني، ص134.

[6]-المصدر نفسه، ص158.

والثبات عليه، الأعمال الصالحة الأساس»[1].

من الملاحظ أن محور العبودية عند الشيخ الجيلاني هو التحرر من رق النفس والخلق و الإرادة وكل ما سوى الله، فكيف يتحقق العبد بمقام العبودية وتصح له بحيث تكون عبودية خالصة لله حقا ؟

**مقتضيات التحقق بالعبودية:**

إن التحقق بالفناء بمظهريه الأساسين المحبة والعبودية يعتمد على مدى تحرر السالك من التبعية جملة: من النفس والخلق والدنيا والآخرة. وهذا التحرر ركز عليه الشيخ الجيلاني فلا يكاد يخلو مجلسا من مجالسه إلا ذكر فيه وجوب التحقق بهذه الحرية، فكما يقول القشيري: «واعلم أن حقيقة الحرية في كمال العبودية، فإذا أصدقت لله تعالى عبوديته خلصت من رق الأغيار حريته» [2].

فما حقيقة هذا التحرر الذي بدونه لا تصح العبودية ؟

**مفهوم الحرية:**

**1ـــ الحرية لغة:**

الحر ضد العبد والحر: الكريم، والخالص من الشوائب... فالحرية هي الخلوص من الشوائب أو الرق أو اللؤم[3].

**2ـــ الحرية اصطلاحا:**

تكاد تجتمع تعريفات ومفهوم الحرية عند الصوفية، إذ تصب كلها في معنى ألا يكون العبد تحت رق شيء من المخلوقات:"من الهوى ومن الخلق ومن الدنيا ومن الآخرة[4]، فيقول طاووس بن كيسان: «الحرية: أن لا يكون العبد تحت رق المخلوقات، ولا يجري عليه سلطان المكونات، وعلامة

---

[1]-المصدر نفسه. ص183.

[2]-القشيري، الرسالة القشيرية، ص253.

[3]-جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج1، ص461.

[4]- القشيري، المرجع السابق، ص253.

صحته سقوط التمييز عن قلبه بين الأشياء...»[1].

ويقول الجيلاني في معنى الحرية: «إذا خرج الخلق من قلب العبد و لم يبق فيه سوى الحق عز وجل ...يرى قربه، يرى صفاته، يرى كراماته وفضله...من تحققت عبوديته ومعرفته...يسير فانيا مستغرقا...وليس للعبد مع سيده اختيار ولا إرادة».[2]

وليوضح لنا الشيخ الجيلاني مفهوم العبودية الخالصة، يروي حكاية عن رجل اشترى مملوكا وكان هذا المملوك من أهل الدين والصلاح، فسأل الرجل ذلك المملوك عن ماذا يريد أن يأكل فقال: ما تطعمني، فقال له ماالذي تريد أن تلبس؟ فقال: ما تلبسني، فقال له أين تريد أن تقعد؟ فقال موضع ما تقعدني، فقال ما الذي تحب أن تعمل ؟ فقال ما تأمرني. فبكى الرجل وقال:طوبى لي لو كنت مع ربي عز وجل كما أنت معي. يقول الشيخ تعليقا على ذلك: «كل من عرف الله عز وجل لا يبقى له إرادة ولا اختيار»[3].

إن السالك يوجب على نفسه مزاولة النوافل إضافة إلى أداء الفرائض على الوجه الأكمل، فيكاد يكون حظ النوافل من الإيجاب عنده مثل حظ الفرائض، فهي مطية الوصول. كما أنه قرر الإلتزام بمبدأ الوصول منذ عزم على السير في طريق المعرفة[4].

وقد أشار الحديث القدسي المتضمن لطريق المحبة إلى أن مفتاح باب المعرفة والمحبة هو إلتزام مزاولة النوافل، فهذه المزاولة هي التي تجعله يصعد في منازل القربى.

فما يزال المتقرب يتغلغل في التجربة الروحية حتى تنعكس آثار أعمال الجوارح على وجدانه، فإذا خالطتها، يقع للسالك بها الأنس الذي يغذي الروح فيتذوق حلاوة العمل فيتحفز للمزيد من التقرب، كما يقع له بتلك المخالطة السكينة فيحسن مراجعة نفسه ومعاملة غيره ويتأدب مع ربه. يقول الشيخ الجيلاني في هذا المعنى: «...يصير الصوم و الصلاة و الذكر وجميع الطاعات جبلته،

---

[1]-المرجع نفسه، ص253.

[2]-عبد القادر الجيلاني، الفتح الرباني، ص 199.

[3]- المصدر نفسه، ص199.

[4]-طه عبد الرحمان، العمل الديني وتجديد العقل، ص125.

مختلطة بلحمه ودمه ثم يجيئه الحفظ من الله عز وجل»[1].

والأنس والسكينة مشاعر مهمة، تخلّص صاحبها من الشعور بقهر الإيجاب في الأعمال، فيصبح يؤديها بداع طبيعي من ذاته، ويبدأ في هذه المرحلة من تشكل اليقين في القرب وتعلو همته في التطلع للوصول.

يظل المتقرب بالنوافل مستمرا بعد هذه النقلة الذوقية، فيدخل في طور جديد مذهل حيث تلابسه الطمأنينة والمحبة فيكتسب طاقة وقوة لتحمل المسير وقد إزداد عنده اليقين بالوصول، وتستولي المحبة على قلبه فينشغل بمحبوبه عمن سواه ويستغرق في الاشتياق والتذلل والرضى من محبوبه وهنا يدخل في وصف آخر وهو وصف العبودية[2] إن مقتضى العبودية هو التخلص من التبعية الشيئية والتبعية العملية. ومفهوم التبعية هو الإرتباط بشيء في أمر ما لا يتم حصوله إلا بهذا الشيء، وسنتعرف على كل تبعية على حده.

### 1ـــ التبعية الشيئية:

إن الآثار الكونية تحيط بالإنسان من كل جهة، وعادة ما يقع الإنسان في التأثر والتعلق بها، فتشتد تبعيته لها اشتدادا يطمس بصيرته على رؤية المؤثر الحقيقي وأولوية التبعية له، وينشأ عن ذلك إعتقاد بأن لها قوة الفعل من نفسها وإنها مستقلة بوجودها، ولا يحرر المتقرب من قيود عبودية الآثار إلا شعور ذوقي بأن الفاعلية لله وحده وأن كل هذه الأوصاف الكونية بما فيها ذاته، هي تابعة لصاحب الفاعلية الحقيقي، وأن تأثيرها يكون إلا بإذن فاعلها ومحركها الأصلي وهو خالق هذا الكون[3].

وهذه العقيدة الذوقية، بأن الله خالق كل شيء، يكتسبها المتقرب بمزاولة الأعمال الشرعية و التقرب بنوافلها، حتى يحصل له الإدراك الذوقي بحقائق الأشياء فيتحرر من أعتق وأقدم قيود البشرية ألا وهي التبعية الشيئية.

---

[1] –عبد القادر الجيلاني، المصدر السابق، ص210،

[2] – طه عبد الرحمان، العمل الديني وتجديد العقل، ص126.

[3] – المرجع نفسه، ص133.

يقول الشيخ الجيلاني في هذا المعنى: «عقلوا أنه فعال لما يريد لا لما يريد الخلق وأنه كل يوم هو في شأن... لاقرار لقلوب القوم مع الله عز وجل، يغيرهم ويبدلهم، يقربهم ويبعدهم، يقيمهم ويقعدهم، الأحوال تتغير على القوم وهم على قدم تحقيق العبودية وحسن الأدب والإطراق»[1].

ويقول في نفس المعنى: «لا تتكلموا عن الأسباب وتشركوا بها وتعتمدوا عليها فيغضب عليكم الحق عز وجل الذي هو مسبب الأسباب، الخالق لها المتصرف فيها. إعتقاد المتبعين لكتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم :أن السيف لا يقطع بطبعه بل الله عز وجل يقطع به، وأن النار لا تحرق بطبعها بل الله عز وجل المحرق بها... وهكذا جميع الأسباب على اختلاف أجناسها، الله عز وجل المتصرف فيها وبها، وهي آلة بين يديه يفعل بها ما يشاء. إذا كان هو الفاعل على الحقيقة فلم لا ترجعون إليه في جميع أموركم وتتركون حوائجكم وتلزمون التوحيد له في جميع أحوالكم؟»[2]

وقد حاول الشيخ الجيلاني أن يوصل معنى أن الفاعلية الحقة لله تعالى، فيوضح هذه العقيدة بقول بليغ قائلا: «فإذا قوي إيمانك وكمل، فدونك والتوكل على الله تعالى والخروج من الأسباب وقطع الأرباب، والمسافرة عن جميع الأشياء بقلبك. تخرج قلبك عن بلدك وأهلك ودكانك ومعارفك، وتسلم ما في يدك إلى أهلك وإخوانك وأقرانك، فتصير كأن ملك الموت قد أخذ روحك، كأن خطاف الموت اختطفك، كأن الأرض انشقت وابتلعتك، كأن أمواج القدر والقدرة السابقة أخذتك في بحر العلم غرقتك»[3].

### 2_ التبعية العملية:

هذه التبعية تظهر في أشكال ثلاثة وهي: طلب الإنتفاع بالعمل وتعظيم العمل وإسناد العمل إلى الذات، والتحرر من هذه التبعية يقتضي التحرر من هذه الأشكال الثلاثة.

### أ _ التحرر من طلب الإنتفاع بالعمل:

ويعني التحرر من طلب العوض عن العمل، قد يقوم السالك بعبادة ويقصد مايجنيه من ورائها

---

[1]-عبد القادر الجيلاني، الفتح الرباني، ص209.

[2]- عبد القادر الجيلاني، الفتح الرباني، ص205.

[3]-المصدر نفسه، ص39.

من فائدة، فتصبح قيمة العمل عنده متوقفة على ما يحصل عليه من عوض، لكن إذا كان هذا جائزا في حق العوام فإنه محظور وضار في حق الخواص، فكل من طلب درجة القربى فعليه أن يتحرر من هذه الرؤية الانتفاعية، فلا يعقل أن يطلب جزاءً على عمل هو محض توفيق وتسديد من الله وهو الخالق للأفعال كلها حقيقة.

وكم نادى الشيخ الجيلاني بطلب الحق عزل وجل وحده و بالعمل له دون انتظار عوض دنيوي ولا أخروي قائلا: «ما يخشى الله تعالى إلا العلماء العمال بالعلم الذين يعلمون ويعملون، ولا يطلبون من الحق تعالى جزاءً على أعمالهم بل يريدون وجهه وقربه، يريدون محبته والخلاص من بُعده وحجابه، يريدون أن لا يغلق باب في وجههم دنيا وآخرة، لا يرغبون في الدنيا ولا في الآخرة ولا فيما سواه، الدنيا لقوم و الآخرة لقوم، والحق تعالى لقوم وهم المؤمنون الموقنون العارفون المحبون له المتقون الخاشعون له، المحزونون المنكسرون لأجله»[1].

وهناك مواضع كثيرة جدا ذكر فيها الشيخ وجوب التحرر من طلب العوض عن الأعمال وشدد في ذلك، بأن جعل ترك طلب العوض فرض كما أن طلب الحلال فرض قائلا: «التوحيد فرض، وطلب الحلال فرض ، وطلب مالابد منه من العلم فرض، والإخلاص في العمل فرض ،وترك طلب العوض فرض»[2].(2)

أما الشكل الثاني من أشكال التبعية العملية الذي يجب التحرر منه هو:إسناد العمل إلى الذات.

**ب_ إسناد العمل إلى الذات:**

أثناء تدبير الإنسان لعمله ومشيئته له والقيام به ووقوعه بالطريقة التي يختارها ويريدها، يجعله يسند هذا العمل لذاته وبأنه صادرعنه، فيعتقد أنه خالق لفعله هذا، وهذا تجاوز وتعدي في حق صاحب المنن كلها وخالق كل شيء[3].

فإن كانت هذه الصفات قائمة بالإنسان وهي من خلق الله، فنسبها للإنسان ظاهريا هو إحسانا

---

[1]-عبد القادر الجيلاني، الفتح الرباني، ص37.

[2]-المصدر نفسه ،ص 98

[3]-طه عبد الرحمان، المرجع السابق، ص136 و137.

وتكريما له[1].

وإسناد العمل إلى الذات، يؤدي بصاحبه إلى نقل التزكية من العمل إلى نفسه فيعظمها وهذا فيه ضرر كبير للمتقرب، حيث يحول هذا بينه وبين الوصول، لأنه بذلك يتطلع إلى إنشاء تبعية خاصة به تضاهي التبعية الأصلية[2]، ومن مقتضى التحرر من التبعية الخاصة أن يتحرر السالك من اختياره وإرادته فيسقط تدبيره لنفسه.

ويرى ابن عطاء الله السكندري أن التدبير نوعين محمود ومذموم، فالتدبير المحمود هوكل تدبير يقرب إلى الله، من أداء حقوق وقمع الهوى والشيطان وتصحيح توبة وغيرها من أعمال البر.

أما التدبير المذموم فهو كل تدبير فيه حظ للنفس وليس فيه قيام بحق الله، كالطاعة مع الرياء وكل عمل يوجب عقابا أو يوجب حجابا[3].

ويوجز الشيخ الجيلاني هذه التقسيمات في عبارة واحدة وهي فناء إرادة العبد في إرادة الله، فهو عبد الأمر والنهي، فلا يكون له مراد غير فعل ما أمر الله به، والمقصود أن يفعل المأمور ويترك المحظور ويخلو فيما سواهما عن إرادة[4].

إن فناء الإرادة بهذا المفهوم هو مطلب شرعي وليس مطلب يختص به الصوفية عن غيرهم، وإسقاط تدبير العبد لنفسه وإتباع الشرع وإخلاص النية، هو من أعظم مظاهر العبودية الحقة.

واشتهر الصوفية والعارفين بإسقاط التدبير وفناء الإرادة، لأنهم ولجوا عالم المعرفة و القرب، وانكشفت لهم الحقائق فشهدوا أنفسهم مدبَرين لا مدبِرين، ومصرفين لا متصرفين، ومحرَكين لا متحركين، فأستحوا أن يعاودوا العيش في وهم التدبير[5].

إنهم امتثلوا بعد أن أدركوا ذوقا أن معنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ

---

[1]- المرجع نفسه، والصفحة.

[2]- طه عبد الرحمان، المرجع السابق، ص136 و137.

[3]-ابن عطاء الله السكندري، التنوير في إسقاط التدبير، ص59 و60.

[4]-عبد القادر الجيلاني، فتوح الغيب، ص13.

[5]-ابن عطاء الله السكندري، المرجع السابق، ص59 و60.

أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾[1]. أن يسلموا أنفسهم لله وما انتسب إليها، لأنه أنشأها ولأنه اشتراها، وأن من لازم التسليم ترك التدبير[2]، ولذلك يقول أبو الحسن الشاذلي رحمه الله: «فإن لكل وقت سهما في العبودية يقتضيه الحق منك بحكم الربوبية»[3].

يقول الشيخ الجيلاني في ذلك: «كل من لا يقدم النية قبل العمل فلا عمل له» [4] حتى و«إن تكلمت أو سكت فأنت في ذنب لأنك لا تصحح نيتك ، سكوتك وكلامك بغير السنة» [5].

فهذا الإتباع للسنة بنية صادقة، هو ما يجعل أمر ترك الإرادة وإسقاط التدبير في متناول العبد.

وإذا جاهد في ذلك وثبت حبا في الله أعتقه الله من رق نفسه وانتشله من معاناة المجاهدة بعد أن يهيمن شهود الله على مشاعره، فيتحقق بأنه مُدَبَر وليس مدبِر، ويستغني عن التوسل بالأكوان ويريح نفسه من التدبير، فيكون التسليم لله والتفويض له دأبه ووجهته ويجني ثمرة ذلك أن تكون الأكوان معه بدل أن يكون هو معها[6]. فهي جند من جنود الله فيجعلها الله سائرة مع هذا العبد الذي أسلم قلبه لله وتأدب معه ليحيا حياة إنسانية طيبة، [7]وفي هذا حكمة لإبن عطاء الله السكندري يقول فيها: «أنت مع الأكوان مالم تشهد المكون،فإذا شهدته كانت الأكوان معك»[8].

إن المتتبع لما يركز عليه الشيخ الجيلاني في مجالسه ومقالاته، يجد أن محور تصوفه قائم على فكرة التوحيد الشهودي، المتمثلة في الفناء عن النفس بفناء إرادتها في إرادة الله، ثم الفناء عن الخلق بعدم رؤية ضرهم ونفعهم وعن رؤية المخلوقات عامة، يقول في عبارة وجيزة عن مبدأ الوصول: «من لم

---

[1]- سورة التوبة، الآية111

[2]- ابن عطاء الله السكندري، المرجع السابق، ص146

[3]- ابن عطاء الله السكندري، التنوير في إسقاط التدبير، ص141

[4]-عبد القادر الجيلاني، الفتح الرباني، ص98.

[5]- المصدر نفسه والصفحة.

[6]-محمد سعيد رمضان البوطي، الحكم العطائية شرح وتحليل، ج4، ص246.

[7]- المرجع نفسه، ص248.

[8]- المرجع نفسه، ص242.

يكن قلبه مجرد من الخلق والأسباب لا يقدر يسلك جادة النبيين والصالحين» [1]. ويقول في موضع آخر: «عليكم بالإيمان ثم بالإيقان ثم الفناء والوجود بالله تعالى لا بك ولا بغيرك». [2]

وكثيرا ما يشير الشيخ الجيلاني أن التدبير والاختيار هما الحجاب والمانع بين العبد وربه، فهو شرك يفسد صفاء التوحيد، ويختار الشيخ الجيلاني العبارات والكلمات البليغة لتصل فكرته واضحة للأذهان والقلوب، فبدلا من أن يقول اترك إرادتك وتدبيرك لنفسك ومتابعة الخلق والاعتقاد في الأسباب، بدلا من ذلك يختار كلمة الموت حتى يبلغ مفهوم صفاء التوجه لله وحده إلى عقول وقلوب سامعيه، يقول في ذلك:" مت عنك وعن الخلق وقد رفعت الحجب بينك وبين ربك"[3]. وهنا سأله أحدهم كيف أموت؟ فأجاب: «مت عن متابعة نفسك وهواك وعاداتك وعن متابعة الخلق وأسبابهم آيس منهم واترك الشرك بهم... اجعل أعمالك كلها لوجه الله لا لطلب نعمه، ارض بتدبيره وقضائه وأفعاله، فإذا فعلت هذا... تصير في كعبة قربه متعلقا بأستارها ذاكرا له وناسيا مما سواه»[4].

لن يتمكن العبد من إسقاط تدبيره لنفسه وإفناء إرادته بالنظر العقلي، إنما هو أمر ذوقي وموهبة يسوقها الله لمن أثبت الصدق في توحيده، وجاهد لتصحيح إعتقاده ورياضة نفسه، وتذلل طويلا لله بأن يعتقه من رق نفسه، ليكون عبدا خالصا فانيا في شهود الله. وعندها يكون أمر إسناد العمل لذاته مستبعدا بل معدوما في حقه بعدما وصل لدرجة التوحيد الشهودي.

وننتقل الآن إلى الشكل الأخير من أشكال التبعية العملية وهو تعظيم العمل، ونرى كيفية التحرر من هذا القيد ليتم للمتقرب التحرر التام من التبعية العملية بأشكالها الثلاثة.

### ج_ التحرر من تعظيم العمل:

إن من أكثر الموانع التي تقطع استئناف السير إلى المطلوب هو تعظيم السالك لعمله، فهو بعد أدائه للعمل يرى أن له مزية يستحق بها التعظيم وأن له حق التفضيل على غيره، وهذا الأمر يبدأ

---

[1]- عبد القادر الجيلاني، المصدر السابق، ص83.

[2]- المصدر نفسه، ص92.

[3]- عبد القادر الجيلاني، الفتح الرباني، ص91و92

[4]- المصدر نفسه والصفحة.

بالإعجاب بالعمل وقد ينتهي بالامتنان به، وهذا أمر ممقوت وسوء أدب ومنازعةالخالق عزوجل.

ولذا لابد من أن يتحرر المتقرب من مشاعر التعظيم للعمل، ويتجنب كل ما يؤدي إلى إكبار هذا العمل في نفسه، وليعلم أن ما لحق عمله من سداد هو من طبيعة العمل الشرعي ذاته، الذي يحمل عناصر السداد التي تميزه عن أي عمل آخر.

فأولى للعبد أن يتحرر من هذا القيد الخطير، ويطلب الحرية التي ينالها بالشعور بالافتقار التام للخالق والشعور بالإضطرار إلى الفاعل. فكيف يكون هذين الوصفين سببا في التحقق بالعبودية الكاملة لله تعالى؟

**أسباب التحقق التام بوصف العبودية:**

**الشعور بالافتقار**: الافتقار هو ترك التملك، بأن يشعر المتقرب بالافتقار التام للخالق، فلا يرى لنفسه وصفا ولا وجودا فيكون متحققا بالانكسار التام، فهو لا شيء حتى يملك وصفا أو وجودا ولا يمتلك حتى وصف الافتقار هذا، وهذا التحرر من الوجودية يجعل القلب محلا قابلا لتلقي المواهب الربانية كما يقول ابن عطاء الله السكندري: «إن أردت ورود المواهب إليك صحح الفاقة إليه»[1].

وللشيخ الجيلاني مقالات عديدة في هذا المعنى منها ما يروي عن نفسه قائلا: «ضاق بي الأمر يوما فتحركت نفسي فقيل لي ماذا تريد فقلت: أريد موتا لا حياة فيه وحياة لا موت فيها... الموت الذي لا حياة فيه: موتي عن جنسي من الخلق فلا أراهم في الضر والنفع وموتي عن نفسي وهوائي وإرادتي ومناي في الدنيا والآخرة... أما الحياة التي لاموت فيها: فحياتي بفعل ربي عز وجل بلا وجودي فيه، والموت في ذلك وجودي معه عزوجل. فكانت هذه الإرادة هي أنفس إرادة أردتها منذ عقلت»[2].

وهذا لنفاسة الافتقار الحق لله ونفاسة العبودية الحقة لله تعالى. يقول صاحب الظلال في هذا المعنى: «لقد كان الله يعد هذه الجماعة لأمر أكبر من ذواتها وأكبر من كل رغبة من الرغبات

---

[1]- محمد سعيد رمضان البوطي، الحكم العطائية، شرح وتحليل، ج4، ص214.

[2]- عبد القادر الجيلاني، الفتح الرباني، ص139

البشرية، حتى الرغبة في انتصار العقيدة ،كان يجردها من كل شائبة تشوب التجرد المطلق له ولطاعته ولدعوته... كان عليهم أن يمضوا في طريقهم لا يتطلعون إلى شيء إلا رضى الله وصلواته ورحمته وشهادته لهم بأنهم مهتدون... هذا هو الهدف وهذه هي الغاية... فأما ما يكتبه الله لهم بعد ذلك من النصر و التمكن فليس لهم، إنما هو لدعوة الله التي يحملونها»[1].

هذا عن وصف الافتقار، فماذا عن وصف الاضطرار الذي لابد أن يكون في أعماق مشاعر المتقرب لتتم عبوديته لله صافية من دون شوائب؟

## 2- وصف الاضطرار:

الاضطرار هو الشعور بالحاجة إلى فعل ما، وعند المتقرب لله هو شعوره الدائم بالإحتياج إلى الله للقيام بفعل ما، فهو متجرد من التصرف، وهذا التجرد هو شعور حقيقي ذوقي، بأن الله هو المتصرف وهو المتجلي بفعاليته حسب مشيئته في الكون كله، يتجرد حتى من فعل الاضطرار نفسه.

والعبد إذا أدرك حقيقة أن لا فاعلية إلا لله وحده، وأن العبد بلا حول ولا قوة، متجرد من التصرف تمام التجريد، حيث لا فعل له في نفسه ولا تأثير له في غيره، فهو متعلق بربه مستغيث به في كل حال، هنا يكون أهلا لأن يمنّ الله عليه باستجابة طلبه بأفضل ما يمنّ به على السائلين. فيكون المتقرب بذلك جامعا بين الاضطرار والاقتدار[2]. وهذا مطابق لما جاء في الحديث القدسي: «وإن سألني لأعطينه، ولأن استعاذني لأعيذنه...». [3]

وكم يكرر الشيخ الجيلاني في مجالسه وكتاباته هذه المعاني التوحيدية الشهودية ليصبح التصور الصحيح للعقيدة واضحا، ويصبح السبيل للتحقق بذلك أيضا واضحا. يقول في أحد مجالسه: «اخلع أنت حتى يكسوك هو، اخلع من حولك وقوتك ووجودك، واستطرح بين يدي

---

[1]- سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، ط10، 1982م، مج1، ص145و146

[2]- طه عبد الرحمان، العمل الديني وتجديد العقل، ص 141.

[3]- أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1989، ج11، كتاب الرقائق، باب: التواضع، ح رقم: 6502، ص414.

الحق عز وجل بلا حول ولا قوة ولا وقوف مع سبب، ولا شرك بشيء من المخلوقات، فإذا فعلت هذا رأيت ألطافه حواليك تأتيك، ورحمته تجمعك، ونعمته ومنته تكسوك».[1] فالشعور بالاضطرار منة إلهية، فهو الجالب للمنح الربانية. والاضطرار مستلزم لاستجابة المولى عز وجل لعبده المضطر: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾[2].

«فلما قام العبد بشرط الانسلاخ التام من حوله والإلتجاء الكلي لله وحده، إستحق الاستجابة استحقاق امتنان وليس استحقاق امتثال، فما كان الاضطرار إلا منة من الله لعبده ليجيبه، وما أجابه إلا ليعرفه عظيم منته».[3]

إن العبودية بهذا الوصف الكامل هي آخر مراتب الحب ولذلك عبر الشيخ الجيلاني بلغة العارف عن المحبة قائلا: «أما المحبة فهي تحفة إلهية من محض القدر، ليس للعبد فيها كسب، ولا يصح وجودها في العبد إلا بعد بروزها من جانب الغيب على يد المشيئة والعبد هناك ساقط الكسب ممحو السبب»[4].

إن المتقرب وهو يتوغل في دهاليز الفناء تتضاءل أحاسيسه بنفسه وبمن حوله، وكلما تقدم في الكشف والمشاهدة كلما إزدادت غيبته واصطلامه عن نفسه وعن شهود غيره من الخلق، فإن كان محافظا على حدود الشريعة ويعود إلى الصحو لأداء فرائضه في أوقاتها رغم انمحائه ذاك، فإن ذلك يعد من علامات صحة السلوك وصدق الهمة وخلوص النية... وآية تولي المولى لوليه، حتى تتوالى طاعاته ولا تنقطع[5].

إلا أن حقيقة الفناء أنه مرحلة يتجاوزها الفاني، ونفق يمر منه لبصل إلى نهاية مبتغاه، وهو حالة البقاء الذي يعود فيه السالك إلى حياته العادية بظاهره، إلا أن باطنه مع ربه شاهدا له

---

[1]- عبد القادر الجيلاني،الفتح الرباني والفيض الرحماني،ص42

[2]- الآية 62سورة النمل.

[3]- طه عبد الرحمان، العمل الديني وتجديد العقل، ص 143.

[4]- عبد القادر الجيلاني، فتوح الغيب، ص123

[5]- إبراهيم بسيوني، الإمام القشيري، ص288

بالتوحيد التام والعبودية الخالصة. فما مفهوم البقاء عند أهل العرفان والصوفية عموما وعند الإمام الجيلاني خصوصا؟

**مفهوم البقاء:**

**1- مفهوم البقاء لغة:** بقي دام وثبت... والبقاء هو الوجود ويطلق هذا المعنى على الشيء من حيث هو جوهر لا من حيث هو حال أو عرض... والبقاء هو دوام الشيء واستمرار وجوده... والبقاء والوجود معنيان متلازمان، فلو لم يكن موجودا لم يكن باقيا و لم يكن باقيا لم يكن كامل الوجود... إذا كان العالم باقيا فسبب ذلك أن الله يديم بإرادته وجوده[1].

**2- مفهوم البقاء اصطلاحا:**

**أ- عند الصوفية:**

يتفق الصوفية في مفهومهم لحقيقة البقاء وهو ما سنلاحظه من خلال عرض أقوال بعض المشاهير منهم، فيقول االقشيري: «من استولى عليه سلطان الحقيقة حتى لم يشهد من الأغيار لا عينا ولا أثرا... يقال أنه فني عن الخلق وبقي بالحق»[2]، ويقول: «أشار القوم بالفناء: إلى سقوط الأوصاف المذمومة وأشاروا بالبقاء إلى قيام الأوصاف المحمودة به».[3]

وأما الكلابذي فيقول: «والباقي هو أن تصير الأشياء كلها له شيئا واحدا، فتكون كل حركاته في موافقات الحق دون مخالفاته، فيكون فانيا عن المخالفات، باقيا في الموافقات». [4] ويستدرك ليشرح معنى «أن تصير الأشياء كلها له شيئا واحدا» حتى لا يفهم منها أن لا فرق بين

---

[1]- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج1، ص215-217

[2]- القشيري، الرسالة القشيرية، ص103

[3]- المرجع نفسه، ص102

[4]- الكلابذي، التعرف لمذهب أهل التصوف، ص 148

ما نهي عنه وما أمر به بل المقصود من ذلك هو أن لا يجري عليه إلا شيئا واحدا وهو ما يرضي الله، وما يأمره به، أما نفسه فقد سقطت حظوظها[1].

ويطلق ابن عربي على مفهوم البقاء "رجوع الولي" فالولي الكامل لابد له من الرجوع إلى الخلق وهذا الرجوع من عند الله إلى حضرة أفعاله به وإليه والاستهلاك فيه[2]، ويسميها أيضا: "الولادة الثانية" فيعود السالك وهو في نهاية المعراج إلى معايشة الواقع والتعامل مع الخلق وهو في كامل توحيده وشهوده.

وإذا كانت كلمة المعراج تطلق في اللغة على السُلم، فهي ها هنا يقصد بها ابن عربي: "السَّلم المزدوج"... فإذا بلغ الولي قمة الصعود فلابد له من العودة نزولا على درج آخر مختلف عن الدرج الذي صعد إليه، والذي هو موازيا له وملتصقا معه. والولي في عودته يرى كل مارآه من قبل أثناء صعوده، غير أن الأشياء التي رآها من قبل بعين نفسه يراها الأن بعين ربه. وفي كل مرحلة من مراحل نزوله يتوقف في نفس المحطات التي كان قد وقف عندها أثناء صعوده، ليأخذ منها ما تركه فيها من أجزاء نفسه، وهذا لا يعد نكوصا وإنما هي استعادة لتلك الأجزاء وقد تغيرت الآن وتحولت تبعا لتحول الولي وانقلاب ذاته، فما كان منها معوجا يصبح مستقيما[3]. بل إن تحول الولي هو الذي يجعل أخذه لتلك الأجزاء أخذا سليما، فيضفي عليها استقامة بعد اعوجاج، وهكذا يتزود الولي أثناء عودته بكل مقومات وجوده التي كان قد خلفها من قبل، والتي يقوْلبها حسب عالمه الخاص به الآن[4].

وشبه ابن عربي المعراج المزدوج بمن لبس ثوبا كان قد خلعه وتركه مقلوبا لأنه أثناء خلعه رفعه من أذياله يقول: «فأخذ يلبس الثياب التي خلع مرة ثانية لكن لا على الوجه الذي لبسها أول مرة لأنه لما خلعها ما رفعها عن نفسه إلا من أذيالها، فصارت ظواهرها بواطنها، وبواطنها

---

[1]- المرجع نفسه والصفحة.

[2]- ميشيل شود كيفيتش، الولاية، ترجمة أحمد الطيب، المجلس الأعلى للثقافة، دط، 2000م، ص228

[3]- المرجع نفسه، ص258-259

[4]- المرجع نفسه، ص259

ظواهرها، فلما لبسها في المرة الثانية لم يقلبها حتى تعود إلى حالها الأول بل لبسها كذلك»[1].

وهنا انقلبت الرؤية من الرؤية بالنفس للأشياء إلى الرؤية بالله وتلبس بهذه الرؤية الشهودية للأشياء أثناء الرجوع.

وعبر النابلسي عن ذلك الترك لأجزاء النفس في مرحلة الصعود بالغيبة أي يغيب عن حظوظ نفسه بشهود ربه، أما في حالة الرجوع وقد تمكن الولي من حال الشهود فيصبح يرى حظوظ نفسه بالله لا بنفسه، أي أن يأخذ ما يأخذ –من أجزاء نفسه– بحال العبودية وخضوع بشريته.[2]

والولاية الكاملة لا تكون إلا بقرب ثنائي فيكون الولي قريب من الله وقريب من عالم المخلوقات أيضا، ويماثل ابن عربي بين الولي الكامل وبين الشجرة التي ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾﴾ [3]. [4]

والذي يجدر بالذكر أن ليس كل ولي يتمكن من الرجوع، فمنهم من يبقى واقفا ومنهم من يرجع، والراجعون على قسمين: هناك الراجع لنفسه وهو العارف وهناك الراجع إلى الخلق بلسان الإرشاد والهداية وهو العالم الوارث[5]، بالرغم ما في الفناء من الصفاء بالقرب إلا أن البقاء يعتبر أعلى مرتبة لأن فيه صحوة العقل وتمييز واعتدال على رأي الجنيد الذي يؤثر البقاء على الفناء وصحوة العقل على غياب التمييز، والحضور على الغيبة و الصحو على السكر والمحو[6].

فالبقاء إذا هو صحوة العقل وحضور بدون سكر يغيب معه الاعتدال[7]، وهذه القدرة

---

[1]– المرجع نفسه والصفحة.

[2]– النابلسي، التصوف الإسلامي، ص 315و316.

[3]– سورة إبراهيم، الآية 24.

[4]– ميشيل شود كيفيتش، المرجع السابق، ص265.

[5]– المرجع السابق، ص261.

[6]– مجدي محمد إبراهيم، التصوف السني ، ص428.

[7]– – المرجع نفسه، والصفحة.

العجيبة على الجمع بين السمو الروحي العالي والمعايشة للواقع التي يتميز بها الولي الكامل بقول عنها أحد المستشرقين:" الإسلام ... قد أنتج رجالا خلطوا- على وجه واسع- بين الإشراق الروحي القوي، وبين الحيوية الخالقة والمقدرة على ممارسة الحياة"[1]. وعقل المقرب الذي عاد صاحبه إل الاتصال بالواقع، وانتقل من مرحلة الفناء إلى مرحلة البقاء، قد أصبح مستغرقا في العبادة بشكل لا يشغله عن الله شاغل، فتتجلى له معاني العظمة في الخلق والإبداع في الكون وفي ذاته بشكل يمكنه من العودة إلى الواقع ومعايشته بجميع مراحله[2].

تكلم الصوفية وبيّنوا في مفهوم البقاء فماذا قال عنه الشيخ الجيلاني؟

**ب-مفهوم البقاء عند الشيخ الجيلاني:**

أفاض الشيخ الجيلاني في مفهوم البقاء، والملاحظ في مجالسه ومقالاته أنه يقدم مفهوم البقاء بطريقة تدخل السكينة والطمأنينة على قلب السامع الذي طالما سمع عن وهج المكابدة ومشقة المجاهدة، فيبرزها على أنه حالة عزيزة ومكانة عالية، تأتي كنتيجة لما قدمه السالك من مجاهدات ومتابعة صحيحة للكتاب والسنة، وسنلاحظ أيضا أن وصفه لحياة صاحب البقاء وكأنها حياة خيالية لما فيها من تكريم وتسخير الكون له، ومن الروحانيات العالية ومن التمكن والرسوخ في العلم وغيرها من الميزات الكثيرة.

يقول الشيخ الجيلاني: «فإذا صح لك الإنفراد والمحبة وقربك إليه وأدناك منه وأفناك فيه، ثم إن شاء أن يشهرك ويظهرك للخلق ويردك إلى استيفاء الأقسام، أمر ريح سابقته وعلمه فيك فهبت على حيطان خلوتك فأرمت بها وأظهر أمرك للخلق فتكون بينهما به لا بك. تستوفي أقسامك مع عدم شؤم النفس والطبع والهوى. يردك إلى أقسامك بان لا يبطل قانون علمه فيك تستوفي الأقسام وقلبك مع الحق عزوجل»[3]. ولما كان السالك أثناء مروره بالفناء قد فقد خصائص آدميته، فهو غريب عن الخلق غائب عنهم وعن الأكوان وعن نفسه وعن فنائه، فيرده

---

[1]- نيكيلسون، الصوفية في الإسلام، ترجمة نور الدين شريبة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 2002م، ص121.

[2]- هيام الملقي، التجارب الروحية، ص70و71.

[3]- عبد القادر الجيلاني، الفتح الرباني والفيض الرحماني، ص59.

الله لينال أقسامه من الدنيا كما خطه له في سابق علمه. يقول الشيخ الجيلاني: «فإن كان لهم أقسام في الدنيا ردهم إلى آدميتهم وبشريتهم باستيفاء أقسامهم، كي لا يبدل العلم والسابقة والقضاء فيحسنون الأدب مع علم الله وقضائه وقدره، ويتناولون ما يعطون على قدم الزهد والترك، لا بنفس وهوى وإرادة »[1].

والولي أثناء رجوعه يأخذ أجزاء نفسه التي تركها وترد عليه، لا بنفسه وإنما بربه وهذا ما نجده في هذه المقولة الجيلانية: «إذا تحقق لك هذا ارتفع قلبك وزاحم صفوف النبيين والمرسلين والشهداء والصالحين والملائكة المقربين وكلما دام لك كبرت وعظمت ورفعت وقدمت ووليت وأمرت، يرد إليك ما يرد، تولى ما تولى تعطى ما تعطى»[2]. وكم يبعث كلامه –عن عودة الولي إلى الحياة الواقعية والمعاشية– على الرغبة في ولوج هذا الطريق حينما يسمع السامع إلى سمو تلك الحياة التي أرادها الله إلى المحبين من عباده قائلا: «إذا تم حبه له وتحقق أتته أقسامه من الدنيا مهنأة مكفاة... فجميع ما تركه وراء ظهره عند باب الحق عزوجل، قد سبقه إلى هناك لأنه تركه لوجه الله، يعطي أولياءه أقسامهم من الأشياء وهم في معزل عنها، حظوظ القلب باطنة وحظوظ النفس ظاهرة فحظوظ القلب لا تأتي إلا بعد منع النفس حظوظها، فإذا امتنعت انفتحت أبواب حظوظ القلب، حتى إذا استغنى القلب بحظوظه من الحق عزوجل جاءت الرحمة للنفس يقال لهذا العبد لا تقتل نفسك فتأتيها حينئذ حظوظها فتتناولها وهي مطمئنة»[3].

ويختار الشيخ الجيلاني من العبارات في وصف ما يحل بصاحب البقاء ما يبعث الدهشة عند المريدين، فيزدادون تحملا لمشاق الطريق، لأنها مرحلة لابد منها فيقول: «فإذا صح لك الاستغناء صب عليك فضله وفتح عليك أبواب أقسامه، باب لطفه ورحمته ومنته»[4]. ثم يذكر قوة الولي الكامل وهي قوة مستمدة بالله فيقول : «صار عبدا حرا، عبد الله عزوجل، حرا مما سواه مطلقا في الأرض والسماء لا يملكه شيء ويملك الأشياء صار ملكا لا يملكه سوى الملك الباب مشرع في

---

[1]– المصدر نفسه ،ص62.

[2]– عبد القادر الجيلاني، الفتح الرباني والفيض الرحماني ، ص63.

[3]– المصدر نفسه، ص70.

[4]– المصدر نفسه، ص104.

وجهه بإذن مطلق لا أبواب ولا حاجب»[1]. إن علامة تولي الله وليه هو أن يفنيه عن غيره ويبقيه به فالفناء مقرون بالبقاء، والتوحيد يتضمن معنى الفناء والبقاء، فالعبد لما ينفي إلهية ما سوى الله فهذا فناء ولما يثبت إلهية الله وحده فهذا بقاء[2].

ومن عاش تجربة الفناء والبقاء فقد أوتي ثمره ألا وهي الولاية.

ولأن الولاية هي هدف كل سالك لطريق التصوف، فإن بعض الباحثين يرى أن يُدرس التصوف دراسة فاحصة من حيث أنه مدرسة للأولياء[3]. فما مدى اهتمام المدرسة الجيلانية بموضوع الولاية وماهي المعايير التي وضعها ليكون الولي وليا؟

قبل أن نتطرق إلى منظور الجيلاني للولاية، نمر على آراء الصوفية أولا وخاصة ممن نظّر لها وكانت حجر الزاوية في مذهبه ونتطرق لذلك من خلال مفهوم الولاية بشقيه اللغوي والاصطلاحي.

**مفهو الولاية:**

**مفهوم الولاية لغة:**

الولاية الإمارة والنقابة فهي إسم لما توليته وقمت به. وقيل الولاية الخطة والإمارة، والولاية هي السلطان، وكلمة الولي لها معان كثيرة منها المحب ومنها الصديق ومنها النصير[4]. والولاية من أسماء الله الحسنى "الولي" وهو الناصر، وقيل المتولي أمور العالم والخلائق، القائم بها. والوالي هو مالك الأشياء جميعها والمتصرف فيها.

والولاية تشعر بالتدبير والقدرة والفعل وهي اسم لما توليته وقمت به. يقال ولي اليتيم الذي يلي أمره ويقوم بكفايته[5].

---

[1]- المصدر نفسه، ص148.

[2]- إبراهيم بسيوني، الإمام القشيري، ص281.

[3]- نيكيلسون، الصوفية في الإسلام، ص120..

[4]- محمد مرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، مج20، ج39-40، ص112و113.

[5]- ابن منظور، لسان العرب، مج8، ص822و823.

ويرى ابن تيمية أن الولاية ضد العداوة وأصل الولاية المحبة والقرب... والولي القريب[1].

ومادة الولاية -بفتح الواو وكسرها- لغة تدل على القرب و على كل ما يتفرع منها من معاني كالمحبة والنصرة والمؤازرة والسلطان وتدبير الأمر والمتابعة. وقد أُستعملت في الإسلام، ووردت في القرآن والسنة، وأخذت اتجاهات مختلفة وأصبحت تطلق على فروع شرعية مختلفة منها الفقهية كولاية اليتم وولاية العتق وولاية النكاح، ومنها السياسية كولاية الإمامة[2].

**مفهوم الولاية اصطلاحا:**

**أ- عند الصوفية:**

يقول الإمام القشيري: «الولي له معنيان: أحدهما: فعيل بمعنى مفعول وهو من يتولى الله سبحانه أمره قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ " وهو يتولى الصالحين"[3] فلا يكله إلى نفسه لحظة، بل يتولى الحق سبحانه رعايته.

والثاني: فعيل مبالغة من الفاعل، وهو الذي يتولى عبادة الله وطاعته، فعبادته تجري على التوالي، من غير أن يتخللها عصيان.

«وكلا الوصفين واجب حتى يكون الولي وليا: يجب قيامه بحقوق الله تعالى على الاستقصاء والاستيفاء، ودوام حفظ الله تعالى إياه في السراء والضراء»[4]. ويقول يحي بن معاذ في صفة الأولياء: «هم عباد تسربلو بالأنس بالله تعالى بعد المكابدة واعتنقوا الروح بعد المجاهدة، بوصولهم إلى مقام الولاية[5].

وقال أبو علي الجرجاني: «الولي هو الفاني في حاله، الباقي في مشاهدة الحق سبحانه، تولى

---

[1]- ابن تيمية، الفرقان بين أولياء الرحمان وأولياء الشيطان، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، دط، 1987، ص17-18.

[2]- عبد الفتاح عبد الله بركة، الحكيم الترمذي ونظريته في الولاية، ص8.

[3]- سورة الأعراف، الآية 196.

[4]- القشيري، الرسالة القشيرية، ص292.

[5]- المرجع نفسه، ص293.

الله سياسته فتوالت عليه أنوار التوالي، لم يكن له عن نفسه إخبار ولا مع غير الله قرار»[1].

ونلاحظ أن المعنى اللغوي والاصطلاحي في معنى الولاية بينهما صلة واضحة، إذ أن معنى المحبة والقرب والنصرة كلها يتحقق بها الولي.

أما الولاية عند ابن عربي فيرى أن في معناها الحرفي هي القرب، لأن هذه الصفة تنطبق في الولي الراجع إلى الخلق فهو قريب من الله وقريب من الخلق، وهذا القرب الثنائي صفة لازمة للولي[2].

ومذهب ابن عربي في الولاية يرتكز على ثلاثة مفاهيم رئيسية وهي: وراثة العلم اللدني، والنيابة في وظيفة الولي ودوره الحقيقي ثم القربة وهو القرب الثنائي للولي فالولي قريب من الله وقريب من خلق الله[3].

والولاية الكاملة عند ابن عربي هي للأولياء الراجعين دون الأولياء الواقفين، وهم الذين توقفوا بعد وصولهم إلى أعلى المقامات، قد هاموا في جلال الله و لم يتمكنوا من تخطي هذه المرحلة من سيرهم، ومرتبتهم لن تبلغ أبدا مرتبة الراجعين الكُمل الذين تمكنوا من مواصلة الرحلة إلى المرتبة العليا بحق، والتي لن تتم إلا بالرجوع إلى الخلق قصد تعليمهم وإرشادهم، وهذا الرجوع هو في مقدور القلة من الذين لهم علم راسخ وتمكين. وهذا الرجوع ليس سقوطا وإنما هو كمالا، لأن الولي إذا رجع لا يفقد توحيده الشهودي وما وصل إليه من قرب[4]. رجوعه استجابة لأمر الله وفناء في إرضاءه.

أما الولاية عند الحكيم الترمذي، فقد كانت حجر الزاوية في مذهبه وأصبح اسمه مقترن بلفظ الولاية، فإذا ذكر الحكيم ذكر معه موضوع الولاية، ويعتبر مذهبه في التصوف مفتاحا

---

[1]- المرجع نفسه، ص294.

[2]- ميشيل شود كيفيتش، الولاية، ص265.

[3]- المرجع نفسه، ص225.

[4]- المرجع نفسه، ص174و175.

ضروريا لكل من يبحث في فكرة الولاية عند اللاحقين من الصوفية[1].

إن الأساس النظري للولاية عند الحكيم، أن هناك ولاية الله للمخلوق تتمثل في محبته وجعله موضع مشيئته، وهناك ولاية المخلوق لله وهو خدمته والوقوف بين يديه والمبادرة إلى مشيئاته وتنفيذها. ويؤكد الحكيم الترمذي على أن الولاية متوقفة على الرعاية الإلهية.

فأداء الطاعات لا تبلّغ الإنسان مرتبة الولاية إلا إذا أحاطت به رعاية خاصة من الله، فتنقله إلى محل القربة بعد أن يبذل الصدق ويسعى بكل ما أوتي[2] من طاقة، ثم يجد نفسه مضطرا إلى الإستغاثة بالله لتشمله رعايته فيجذبه إليه ويخلّصه من نوازع نفسه التي لا تخسأ ولا تتلاشى إلا برحمة من الله لعبده الصادق في مسعاه، بل حتى هذا المسعى والتوجه والصدق هو أثر من آثار توفيق الله لعبده[3].

إن موضوع الرعاية الإلهية عند الحكيم الترمذي هو المحور الأساسي الذي يدور عليه أمر الولاية، فالسالك المبادر بالطاعات وبذل الجهد لبلوغ الغاية القصوى ثم تلحقه العناية فقد تحقق بالولاية الكاملة. ومن بادرته العناية فتوجه بسببها إلى الطاعة فقد تحقق بالولاية الكاملة[4].

وكما نجد اهتمام الصوفية بموضوع الولاية، فإن شيخنا الجيلاني قد أولاها كل الاهتمام وركز عليها في مجالسه وفي مقالاته ووجه إليها سعي المريد من بدايته في أول الطريق. فماهي نظرة الشيخ الجيلاني للولاية. وكيف أسس لها؟

**ب-الولاية عند الشيخ الجيلاني:**

المستطلع لمقولات الشيخ الجيلاني في الولاية يجده يتأرجح في تركيزه بين أمرين إثنين وهما: علامات الولاية وكيفية التحقق بالولاية. وسنشرح كل قسم على حدى:

**1-علامات الولاية عند الشيخ الجيلاني:** هناك علامات كثيرة على صحة الولاية تكلم

---

[1]- عبد الفتاح عبد الله بركة، الحكيم الترمذي، ص8.

[2]- عبد الفتاح عبد الله بركة، الحكيم الترمذي ، ص66.

[3]- المرجع نفسه، ص101.

[4]- المرجع نفسه، ص66.

عنها شيخنا، إلا أننا سنحاول ذكر العلامات الأكثر تكرارا في أقواله، بإعتبار أنها أبرز ما يعرف بها الولي.

ولإدعاء الكثير للولاية –في عصره– دفعه إلى كثرة التحذير من هذه الدعاوي، فكان يقدم للمدعي أوصاف يميز بها حقيقة الولاية عن غيرها، فيقول: «فإن أبت نفسك إلا إدعاء الولاية، فحدها بهذه الخصال، فإن لم تكن فلست بولي»[1]. ثم يذكر هذه الخصال وكلها أحوال باطنية يتحقق بها الولي، قائلا: «علامة الولي: الاستغناء بالله عزوجل في كل شيء والقناعة بالله عن كل شيء والرجوع إليه في كل شيء»[2].

وهناك علامة أساسية أيضا وهي قصر الأمل الذي يدفع السالك لأن يشمر ويجد حتى يدرك مراده. يقول الشيخ في ذلك: «صاحب قصر الأمل مهجور الكل، قاطَع الكل، يلبس لباس الزهد ثم لباس الفناء ثم لباس المعرفة»[3].

وهناك علامات التحقق بالافتقار والتوحيد الشهودي –وهذه من أدل الدلائل على الولاية– نجد الشيخ الجيلاني يذكرها للمريدين كعلامة على الولي الوارث المتأهل للمشيخة، قائلا: «من أراد الفلاح فليصر أرضا تحت أقدام الشيوخ، ما صفة هؤلاء الشيوخ؟ هم التاركون للدنيا والخلق المودعون لهما، المودعون لما تحت العرش إلى الثرى، الذين تركوا الأشياء وودعوها وداع من لا يعود إليهما قط، ودعوا الخلق كلهم ونفوسهم من جملتهم، وجودهم من ربهم عزوجل في جميع أحوالهم»[4].

ومن علاماتها أيضا التحقق بالعبودية في كل حال فيقول: «الأحوال تتغير على القوم وهم على قدم تحقيق العبودية وحسن الأدب والإطراق»[5]. فهم دوما محبون، مستسلمون مهما جرت عليهم البلايا والنعم. وسنذكر آخر علامة مما اخترنا –لأن الشيخ قد أفاض في ذكر أوصاف

---

[1] – عبد القادر الجيلاني، الفتح الرباني، ص271.

[2] – المصدر نفسه، والصفحة.

[3] – المصدر نفسه، ص260.

[4] – المصدر نفسه، ص205.

[5] – المصدر نفسه ، ص209.

الأولياء وعلامات الولاية- يتكلم فيها عن طبيعة طريق الولاية، ومتى يصح القرب وتأتي الولاية. ويبين أن الطريق طويل وشاق، وأن السالك مهما سار لا يتوقف إلا حين يبذل كل ما في وسعه من مجاهدات للتحرر من رق النفس، إلا أن هذه الاخيرة لن يتحصل السالك على حريته منها إلا بالله، أما أن يعول على مجهوده فقد استفرغ المجهود كله و لم يتخلص من آفاتها.

يرى الحكيم الترمذي أن السالك يجد -بعد استفراغ جهده من الصدق في سيره- أن نفسه لاتزال حية تأخذ حظوظها، حينها يتأكد يقينا أنه لن يصل إلا بمعونة خالصة من الله، فيدعو دعاء المظطر فيكون حينها حري أن تدركه الرحمة مصداقا لقوله تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ﴾[1]. فيعتق من رق النفس ويكشف عنه السوء الذي كان بنفسه من الآفات وينقل إلى محل الأحرار الكرام وهو محل الصديقين والمقربين من أولياء الله[2].

ونفس الأمر يعبر عنه الشيخ الجيلاني بطريقته قائلا: «امش حتى لا تطاوعك ساقاك... إذا انقطعت خطوات قلبك وذهب قواك في السير إليه، كان ذلك علامة قربك منه، فحينئذ سلم واستطرح... يردك إلى العمران ويوقف الدنيا والآخرة والجن والإنس والملك والأرواح في خدمتك، إذا صح القرب لعبد أتته الولاية»[3].

هذه بعض العلامات التي تعرف بها ولاية الولي، والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو: كيف يتم التحقق بالولاية حسب رأي الشيخ الجيلاني؟

## 2-كيفية التحقق بالولاية عند الشيخ الجيلاني:

تفيض مجالس الشيخ بالحديث عن موضوع الولاية، وكم كان يركز على الطريقة والأسس التي لابد منها للمريد لبلوغ مراده، وقد فصلنا في ذلك في مرحلة التخلق إلا أننا هنا سنركز على ما ركز عليه الشيخ وربطه بالولاية مباشرة وهو مسألتي الافتقار والاضطرار التي هي

---

[1]- سورة النمل، الآية 62.

[2]- عبد الفتاح عبد الله بركة، الحكيم الترمذي ونظريته في الولاية، ج2، ص99.

[3]- عبد القادر الجيلاني، الفتح الرباني، ص207.

ركائز التوحيد الشهودي، فكانت عبارات الاستسلام والاستطراح والافتقار كثيرا ما يرددها في أقواله، يقول في ذلك: «إن أردت القرب من الله فعليك بالاستطراح بين يدي قدره وفعله، بلا لم ولا كيف، فبذلك تقرب منه، لا تشأ شيئا فإنه مايصح، قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[1][2].

ما يحول دون بلوغ العبد رتبة الإحسان والشهود هو رؤيته للمكونات موجودات ذات أهمية وفاعلية، فلما يقف متبتلا _ظاهريا_ في صلاته وخاطب الله بإياك نعبد وإياك نستعين، فإن فكره وخياله يشرد لا محالة إلى هذا الذي يقوم أمام ناظريه من الحجب الكونية الكثيفة، والمتمثلة في الدار والتجارة والأهل والمال ونحوها، وبالتالي فلن يتمكن من أن يعبد الله مشدودا ببصيرته وفكره ومشاعره إليه كأنه يراه، وسنرى مع الشيخ وهو يوضح لنا أسباب هذه الحجب فيقول: «ماحجبت عن فضل الله... إلا لإتكالك على الخلق والأسباب والصنائع والاكتساب»[3]. فلو «رفعت إتكالك عن الكسب والحول والقوة ورأيت الله عز وجل هو الرزاق وهو المسبب والمسهل والمقوي على الكسب... من غير أن ترى الواسطة والسبب فرجعت إليه واستطرحت بين يديه رفع الحجاب بينك وبين فضله وباداك وغذاك بفضله عند كل حاجة على قدر ما يوافق حالك»[4]. وعندها تنزل الرحمة الإلهية على قلبك فتحرره من رق الأسباب ورق النفس و«ينقطع عن قلبك كل إرادة وكل شهوة ولذة ومطلوب ومحبوب، فلا يبقى في قلبك سوى إرادته عز وجل»[5]. ثم يزيل الحيرة التي تنتاب السالك في إمكانية ذلك قائلا: «فإذا أراد أن يسوق إليك قسمك الذي لابد من تناوله... أوجد عندك شهوة ذلك القسم وساقه إليك، فيواصلك به عند الحاجة ثم يوفقك ويعرفك أنه منه وهو سائقه إليك ورازقه لك فتشكره حينئذ وتعرف وتعلم،

---

[1]- سورة الإنسان، الآية 30.

[2]- عبد القادر الجيلاني، الفتح الرباني، ص157.

[3]- المصدر نفسه، ص36.

[4]- المصدر نفسه، ص37.

[5]- المصدر نفسه، والصفحة.

فيزيدك خروجا من الخلق»[1].

وقد بينا بشيء من التفصيل في مرحلة التخلق عند الشيخ الجيلاني ورأينا أساسيات الطريق ومؤهلات الدخول في مرحلة التحقق بقطبيها: الفناء والبقاء، إلا أن هناك القلة النادرة جدا من الأولياء لا يمرون بمرحلة التخلق أولا بل يجذبون جذبا بفضل منة الله عليهم فيصلون إلى الشهود الذوقي، ثم يردون للتخلق إلا أنهم لا يعانون من وهج المكابدة والمجاهدات، وقد تحدثنا عن ذلك في المظهر الأول من مظاهر الفناء لما تكلمنا عن أنواع الصوفية في المحبة.

هذا عن المظهر الأول من مظاهر البقاء والمتمثل في الولاية، أما المظهر الثاني فهو التمكين والرسوخ فما مفهوم التمكين عند الصوفية وكيف تظهر الولاية في التمكين ؟

**مفهوم التمكين:**

**1_ مفهوم التمكين لغة:**

التمكين المكنة، تقول العرب: إن بني فلان لذو مكنة من السلطان أي تمكن[2]. والمكانة عند العرب هي المترلة عند الملك... وقد مكُن مكانة فهو مكين[3]. فالتمكين في اللغة سلطان وملك .

**2_ مفهوم التمكين اصطلاحا:**

**أ–عند الصوفية:**

يقول الإمام القشيري: «التمكين صفة أهل الحقائق»[4]. والتمكين هو نهاية التلوين الذي هو صفة أصحاب الأحوال، فصاحب التلوين أبدا في الزيادة، وصاحب التمكين وصل ثم إتصل، وأمارة أنه إتصل: أنه بالكلية عن كليته بطل. فلما تخنس أحكام البشرية، ويستلي سلطان الحقيقة، فإذا دام للعبد هذه الحالة فهو صاحب تمكين[5]. والتمكين مرتبط ارتباطا وثيقا بخمود أحكام البشرية والتحرر

---

[1]– عبد القادر الجيلاني، فتوح الغيب، ص38.

[2]– ابن منظور، لسان العرب، در صادر، بيروت، دط، دت، ج 13، فصل النون، باب مكن، ص414.

[3]– المرجع نفسه، ص415.

[4]– أبو القاسم القشيري، الرسالة القشيرية، ص114.

[5]– المرجع نفسه، ص114.

والتحرر من معلولات النفس[1].

وصفة الرسوخ والتمكين لا تأتي إلا بالعلم الدقيق والعمل المتواصل المعبر عنه في الحديث: «ومازال عبدي يتقرب إلي بالنوافل...» فيلهم النور والعلم اللدني الذي به يكون أقدر على استمداد المعاني وفهم ما ليس بمقدور غير الولي فهمه[2]، ومن هذا المفهوم عرّف إبراهيم بن الأدهم التمكين بأنه: «نور في القلب يعرفون به الحق والباطل والناسخ والمتشابه»[3] وفقا لقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴾[4].

وصاحب التمكين ممكن في مقامه ثابت لا يتزعزع بالخواطر المفاجئة، لأنه مقيد برباط الشريعة، مؤيد من الله تعالى في جميع سكناته وحركاته، فلا ينقلب حاله ويذهب مع الذاهبين... فصاحب التمكين لا يهتز ولا يتاثر ببوارق وطوارق الكشف، فهو راسخ كالجبل قد استقرت نفسه وتسددت خطاه[5].وللجنيد مقولة في هذا المعنى تدل على مقام الرسوخ والتمكين مُرددا لقوله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾[6]. ويعني بها التمكين، فلا يتواجد ولا يتحرك ولا يتزعج[7].

وللجنيد ملكة متميزة في النظر، ففي العديد من مواقفه يرفض الغيبة والانزعاج والتواجد سواء كان االسالك في حال فناء أو في غير فناء، لأن اقتدار الولي الراسخ المتمكن هو دليل على صحة

---

1- المرجع نفسه، ص116.

2- طه عبد الرحمان،العمل الديني وتجديد العقل، ص190

3- عبد الفتاح بركة، الحكيم الترمذي،ج ، ص43

4- سورة آل عمران، الآية 7.

5- مجدي محمد إبراهيم، التصوف السني، ص54.

6- سورة النمل الآية88.

7- مجدي محمد إبراهيم، المرجع السابق، ص55.

الحال[1].

لذلك كان الجنيد من الذين رفضوا الشطح ونادى بالاعتدال الذي يجمع فيه صاحبه بين قطبي الشريعة والحقيقة، ويقف على قمة الرسوخ والتمكين وينبذ فيه كل انزعاج أو حركة أو تلوين، ذلك لأن سلطان العلم أقوى من سلطان الوجد. والعلم يجعل صاحبه في محل الأمن، كما يكون في كنف الأوامر والنواهي، فلا يخرج عن الحدود، فيصبح في محل نقصه هذا إما معذورا وإما مغرورا[2].

ويعرف الهجويري التمكين بقوله: »أما التمكين فهو عبارة عن إقامة المحقيقين في محل الكمال والدرجة العليا، فيمكن لأهل المقامات العبور من المقامات، والعبور من درجة التمكين محال. لأن الأول درجة المبتدئين والثاني مستقر المنتهين. ويكون العبور من البداية إلى النهاية، ولا وجه لتجاوز النهاية، لأن المقامات منازل الطريق، والتمكين قرار الحضرة»[3].

هذا معنى الرسوخ والتمكين عند بعض الصوفية، فماذا عنه عند الشيخ الجيلاني ؟

**ب-الرسوخ والتمكين عند الشيخ الجيلاني:**

يقسم الشيخ الجيلاني حالة السالك إلى ثلاثة أقسام:

الأول حال المريد صاحب الوقت مقامه المجاهدات والمكابدة ومجانبة حظوظ النفس.

والثاني هو محال المتوسط وهو صاحب تلوين لأنه يرتقي من حال إلى حال وهو في الزيادة.

أما القسم الثالث حال المنتهي وهو صاحب يقين وتمكين. يقول في ذلك: «ومقام المنتهى الصحو والثبات وإجابة الحق من حيث دعاه، قد جاوز المقامات وهو في محل التمكين، لا تغيره الأحوال ولاتؤثر فيه الأهوال، قد استوى في حالة الشدة والرخاء والمنع والعطاء والوفاء والجفاء، أكله كجوعه ونومه كسهره، قد فنيت حظوظه وبقيت حقوقه، ظاهره مع الخلق وباطنه مع الحق»[4].

---

[1]- المرجع نفسه، ص356.

[2]- الهجويري، كشف المحجوب، ص662.

[3]- المرجع نفسه، ص617.

[4]- علي بن يوسف الشطنوفي، بهجة الأسرار ومعدن الأنوار، ص234.

هذا معنى التمكين عند الشيخ الجيلاني وقد أطلق عليه مقام المنتهى دالا بذلك على مكانة هذا المقام وعلوه فهو منتهى مطلب السالكين.

وكلمة التمكين عند الشيخ الجيلاني يشير بها إلى تمكن قلب الولي من القرب من الحق عزوجل والوصول إليه[1]. فالسالك يظل في ترق حتى يقوى تمكنه ويصبح من العارفين للحق عزوجل[2]. فالتمكن له علاقة وطيدة بالمعرفة، فكل منهما يمكن أن يعرف بالآخر. وصاحب التمكين عند شيخنا هو العالم العامل بعلمه الوارث للرسل[3].لا سبيل إلى التمكن إلا بالعمل الدقيق الواسع، والنزول في مراتب العمل ولايزال كذلك حتى يهبه الله نوره ومحبته فيمكنه من قربه وحينها يكون وليا وارثا متمكنا يقوم في الأرض مقام الرسل.

لا يكفي للعمل أن يقترن بالنظر، ولا أن يطابقه فحسب، بل ينبغي أن يبلغ العمل من نفس السالك درجة يصبح معها هو الممد للنظر بأسبابه وكيفياته

هذا عن الترسيخ، أما عن وسيلته فهي إتحاد النظر بالعمل، فالسالك بمداومته على الأعمال، والاستزادة منها يتجه تدريجيا إلى الجمع بين هذين الطرفين، بل إلى تحقيق الإتحاد التام بينهما... ويصبح هذا وصفا راسخا، لا يتصرف صاحبه إلا وفقه[4].

هذه مرحلة التحقق بفنائها وبقائها تتجلى في العارف عبوديةً ومحبة وولاية وتمكنا، تؤهله للوراثة الكاملة للنبوة.

---

[1]- عبد القادر الجيلاني، الفتح الرباني، ص203.

[2]- المصدر نفسه، ص115.

[3]- المصدر نفسه، ص 183.

[4]- طه عبد الرحمان، العمل الديني وتجديد العقل، ص190.

# الخاتمة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إن منزلة الإحسان التي لطالما نظرنا إليها على أنها تخص أجيال العهود الأولى من المسلمين دون غيرها، وأن بيننا وبينها بعد المشرقين، في زمن يصعب معه الالتزام بأدنى مقتضيات الدين، هذه المرتبة اتضحت خلال هذا البحث في دقائق حقيقة الإسلام والطريق إليه، أنه بإمكان كل صادق في إرادته الوصول إليها وأن مفتاحها هو أبجديات الدين وتعاليمه المعروفة، فقط أن نضع الوصول هدفا لا نحيد عنه ونبذل الصدق أكثر في الجهد ليمن الله بفتح من عنده.

فحقيقة الإشكال المتمثل في ماهية الممارسة التي توصل إلى التحقق وماهية عوائق الوصول وماهية التحقق ودرجاته، كل ذلك نجمع خلاصته في هذه النتائج التالية:

-أن التحقق بشقيه الفناء والبقاء والذي فيه يتحقق السالك بتوحيد شهودي، هو هبة إلهية يمن الله بها على عبد أثبت الصدق في سعيه منذ أول خطوة في طريق العرفان، فكلما سعى جاهدا صادقا يأتيه فتح إلهي يمده بقوة وإرادة متجددة تتطلع إلى المزيد، فيواصل ببذل المزيد، وكلما خلع وصفا من أوصاف نفسه ألبسه الله وصفا من عنده فيصير وصفا بالله.

-والمثير في أن بداية طريق العرفان قد أوضحه الشيخ الجيلاني بشيء من البساطة، بأن على السالك أن يأتمر بما أمره الله وأن ينتهي عما نهاه، وهذا بإمكان كل مسلم إلا أن الفتوحات تتفاوت بتفاوت مستوى الإدراك ومستوى التطلع ومستوى الصدق، ولذلك فإن المميزين من السالكين هم الذين يصلون إلى درجات متقدمة من التحقق، فهم عادة يكونون ذوي قدرات مميزة عن غيرهم من حيث الإدراك والاستعداد الروحي وصفاء السريرة، فكلما كان حظ العبد من هذه القدرات كلما كان حظه من الوصول، فالتحقق منازل.

-والمتأمل في حقيقة التوحيد، يجد أن كل مسلم هو ملزم أن يطرق باب التحقق ويلج في طريقه قدر همته، لأن التوحيد لن يترل إلى الواقع المعاش إلا إذا صار ذوقا. وطريق الذوق طريق واحد وهو أن يقيم المسلم وزنا للعمل الشرعي فرائض وسنن. وأكبر دليل على صحة ذلك ما رأيناه في تحليل حديث النوافل. هذا من جهة أخرى، ومن جهة أخرى أن يلزم نفسه بمبدأ الوصول.

-إنما يحدث للمتساقطين على طريق التحقق، سببه ثغرات البدء بقلة الزاد العلمي الكافي، والملاحظ أن هناك أساسيات علم، على كل سالك أن يتزود بها وهي خيوط رقيقة لا ترى إلا إذا

دقق فيها السالك المتعلم حتى تتضح في مدركاته لتصبح عقيدة راسخة وهذه الدقائق تتمثل في:

1-أن حظوظ النفس تتلون بتلون حال صاحبها وتتجه حيث يتجه، وإن لم يعلم بطبيعة النفس فإنها تأخذه نحو السقوط لا محال وهذا يحدث معه حتى وهو في أعلى مدارج الطريق.

2-أن يتشرب عقيدة الافتقار والاضطرار من أول بدء الطريق إلى آخره.

3-أن يضع منزلة القربة من الله نصب عينيه، وأن لا يشغله عن ذلك الصراع مع حظوظ النفس والخلق.

هذه أهم مقتضيات الوصول.

-إذا فالممارسة الموصلة إلى التحقق ما هي إلا الالتزام الجاد والصادق بأوامر الله والانتهاء عن نهيه، والنزول في مراتب الاشتغال، حتى تبدأ الفيوضات الإلهية بصقله لينتقل حاله ومقامه صعودا في منازل الفناء، فيتحقق بالمستوى الأول من الإحسان.

-وإن أثبت الصدق بالتزام مبدأ الوصول الأعلى فإنه يتحقق بمنة الله وفضله بالمستوى الأكمل من الإحسان وهو التوحيد الشهودي التام.

-وما اشتهار الشيخ الجيلاني بالاستقامة على السنة وتبسيطه للتدرج في الطريق إلا دليل على إمكانية التحقق بالدرجات العليا للإيمان. والسبيل واحد وهو الالتزام بمبادئ الدين المفروضة وإتباع السنة إتباعا يكاد يوجبها، ونقطة: "يكاد يوجبها" هي الخط الفاصل بين من يتحقق ومن لا يتحقق بالتوحيد الذوقي.

-إن فكرة فناء الإرادة التي هي جوهر التحقق ليس مضمونها إلغاء الإرادة الإنسانية، بل تقييدها بالإرادة الإلهية في شكلها التكليفي: بمعرفة والتزام قواعد الأمر والنهي التي جاء بها الوحي. وفي شكلها التكويني: بمعرفة والتزام حتمية السنن الإلهية التي تحكم حركة الكون.

-كما اتضح في البحث أن الشيخ عبد القادر الجيلاني سني في عقيدته، وسني في منهجه الروحي، حارب البدع بمختلف مشاربها، وتخرج على يديه خيرة العلماء والمربين والقادة والفاتحين.

هذه أهم النتائج التي توصلت إليها، أسأل الله أن أكون قد وُفقت في تقديم هذا العمل .

وفي الأخير أتوجه بكل الشكر والامتنان إلى أستاذي المشرف الدكتور عبد الوهاب فرحات، الذي أحسن تقويم الرسالة وقبل مناقشتها.

# الفهـــرس

فهرس الآيات القرآنية
فهرس الأحاديث النبوية
قائمة المصادر والمراجع
فهرس الموضوعات

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

| طرف الآية | رقم الآية | الصفحة |
|---|---|---|
| سورة آل عمران | | |
| ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ... ﴾ | 7 | 128 |
| ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ... ﴾ | 190 | 80 |
| ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا ... ﴾ | 191 | 80 |
| سورة النساء | | |
| ﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ ... ﴾ | 77 | 60 |
| سورة المائدة | | |
| ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ... ﴾ | 23 | 59 |
| سورة الأعراف | | |
| ﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ... ﴾ | 196 | 121 |
| سورة الأنفال | | |
| ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ ... ﴾ | 29 | 53 |
| سورة التوبة | | |
| ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ... ﴾ | 111 | 109 |
| ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ... ﴾ | 112 | 42 |
| ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ ... ﴾ | 118-117 | 44 |
| سورة إبراهيم | | |
| ﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ | 24 | 117 |
| سورة الإسراء | | |
| ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ | 9 | 71 |
| | | |

| | | |
|---|---|---|
| ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا ... ﴾ | 19 | 92 |
| **سورة الكهف** | | |
| ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم ... ﴾ | 28 | 78 ،47 |
| ﴿ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ | 65 | 34 |
| ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا ﴾ | 110 | 53 |
| ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ... ﴾ | 110 | 63 |
| **سورة طه** | | |
| ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ | 82 | 40 |
| ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ ... ﴾ | 130 | 75 |
| **سورة النور** | | |
| ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ... ﴾ | 31 | 41 |
| **سورة الفرقان** | | |
| ﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ ... ﴾ | 71 | 39 |
| | | |
| **سورة النمل** | | |
| ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ | 62 | 125،114 |
| ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ ... ﴾ | 88 | 128 |
| **سورة العنكبوت** | | |
| ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ ... ﴾ | 49 | 69 |
| **سورة لقمان** | | |
| ﴿ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ ... ﴾ | 15 | 69 |
| **سورة فاطر** | | |
| ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ... ﴾ | 28 | 36 |

| | | |
|---|---|---|
| **سورة ص** | | |
| ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ... ﴾ | 26 | 55 |
| **سورة الزمر** | | |
| ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا ... ﴾ | 9 | 50 ،38 |
| **سورة الشورى** | | |
| ﴿ ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ ... ﴾ | 13 | 99 |
| **سورة الحجرات** | | |
| ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ ... ﴾ | 14 | ب |
| **سورة الجمعة** | | |
| ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ... ﴾ | 2 | 71 |
| **سورة التغابن** | | |
| ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ | 16 | 92 |
| **سورة التحريم** | | |
| ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً ... ﴾ | 08 | 41،40 |
| **سورة المزمل** | | |
| ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾ | 6 | 77 |
| ﴿ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴾ | 7 | 77 |
| ﴿ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ | 9 | 77 |
| **سورة الإنسان** | | |
| ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ ... ﴾ | 30 | 126 |
| **سورة الشمس** | | |
| ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ... ﴾ | 10-7 | 57 |

| سورة البينة | | |
|---|---|---|
| ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ... ﴾ | 5 | 58 |
| **سورة الزلزلة** | | |
| ﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ... ﴾ | 8-7 | 53 |

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

## فهرس الأحاديث

| طرف الحديث | الصفحة |
|---|---|
| " من يرد الله به خيرا يفقه في الدين " | 37 |
| " إنه ليغان على قلبي ، وإني لأستغفر الله ..." | 42 |
| " ولا أنا إلا يتغمدني الله منه بفضل ورحمة " | 63 |
| " سبحان الله وبحمده عدد خلقه ... " | 80 |
| " من عادي لي وليا فقد أذنته بالحرب ..." | 91 |

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

## قائمة المصادر والمراجع

**القرآن الكريم.**

**أولا:المصادر :**

- **الجيلاني (عبد القادر، ت 561 ه):**

1. الغنية لطالبي طريق الحق، دار الجيل، بيروت، ط1، 1999.
2. الفتح الرباني والفيض الرحماني، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2001.
3. فتوح الغيب، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، دط، دت.

**ثانيا:المراجع:**

**أ-كتب الحديث:**

**البخاري (محمد بن اسماعيل ، ت256 ه):**

4. الجامع الصحيح، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة

**ابن حنبل (أحمد بن محمد الشيباني، ت 241ه):**

5. الفتح الرباني،دار إحياء التراث العربي، ط2، دت، ج14

**العسقلاني (أحمد بن حجر ، ت 852ه):**

6. فتح الباري شرح صحيح البخاري،دار الكتب العلمية ،بيروت ،ط1، 1989م، ج11

**مسلم (أبو الحسن بن الحجاج، ت261ه):**

7. صحيح مسلم، بيت الأفكار الدولية، دط، 1998.

**ب-المعاجم اللغوية:**

- **الحفني( عبد المنعم ):**

8. المعجم الصوفي، الكتاب الشامل لألفاظ الصوفية ولغتهم الإصطلاحية، ومفاهيمهم ومعاني ذلك ودلالاتهم، دار الرشاد، القاهرة، ط1، 1997

- **الزبيدي (محمد مرتضى،ت 1205ه) :**

9. تاج العروس من جواهر القاموس، دار الكتب العلمية، بيروت، دط، دت.

- **صليبا (جميل، ت1976م ):**

10. المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة، بيروت، دط، 1982.

- **الفيروز أباذي( محمد بن يعقوب، ت817ه) :**

11. القاموس المحيط، دار الكتاب العربي.

- **ابن منظور (جمال الدين الأنصاري ، ت711 ه):**

لسان العرب:

12. دار صادر، بيروت, ط1, دت.
13. دار الكتب العلمية، بيروت، دط، دت.
14. دار الكنب العلمية، بيروت ط1، 2005.
15. دار صادر، بيروت، دط، دت.

**ج-كتب مختلفة:**

- **إبراهيم (مجدي محمد ):**

16. فعل الهمة في المحبة والإرادة الصوفية، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2003.
17. التجربة الصوفية –بحث في تحقيق العلاقة بين اعتقاد الثنائية ورؤية الواحدية في تجربة العارف الروحانية، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2003.
18. التصوف السني حال الفناء بين الجنيد والغزالي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2002.
19. الحرية عند ابن عربي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2004.

- **بركة (عبد الفتاح عبد الله) :**

20. الحكيم الترمدي ونظرياته في الولاية، من مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية، دط، دت.

- **بن بريكة (محمد)** :

21. موسوعة الطرق الصوفية، الإيضاح والبيان، دار الحكمة، الجزائر، ط1، 2007.

- **بسيوني (إبراهيم)**:

22. الإمام القشيري سيرته وآثاره، مذهبه في التصوف، المكتبة العصرية، بيروت، دط، 1972.

- **البوطي (محمد سعيد رمضان)**

23. الحكم العطائية شرح وتحليل، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، ط1، 2002.

24. باطن الإثم الخطر الأكبر في حياة المسلمين، دار البعث، قسنطينة، ط2، دت.

- **ابن تيمية(ت 728ه)**:

25. مجموع الفتاوى، المكتب التعليمي السعودي، المغرب، دط، دت.

- **جعفر (محمد كمال إبراهيم )**:

26. في الفلسفة الإسلامية، مكتبة الفلاح، الكويت، ط1، 1986.

- **الجوزية (ابن القيم، ت751ه)** :

27. التوبة والإنابة، دار المكتبي، دمشق، ط1، 1999.

28. الجواب الكافي لمن يسأل عن الدواء الشافي، دار الفكر، بيروت، دط، 2002.

29. إني مهاجر إلى ربي –مختصر طريق الهجرتين وباب السعادتين، دار الشهاب، باتنة، دط، دت.

30. الفوائد، دار النفائس، بيروت، ط2، 1986.

- **ابن أبي الدنيا( ابوبكرعبد الله بن محمد، ت281ه)**:

31. العزلة و الإنفراد، دار الوطن، السعودية، ط1، 1977

- **الحاجي (محمد عمر )**:

32. بدران (عبد الله) ، التوبة والإنابة، دار المكتبي، دمشق، ط1، 1999.

- **حسين (أحمد ):**

33. الطاقة الإنسانية، المكتبة العصرية، بيروت، ط3، 1970.

- **بن الحسين (محمد موهوب ):**

34. وصايا وأدعية الشيخ عبد القادر الجيلاني، دار الهدى عين مليلة، دت.

- **الحفني (عبد المنعم) :**

35. الموسوعة الصوفية، أعلام التصوف والمنكرين عليه والطرق الصوفية، دار الرشاد، القاهرة، ط1992،1.

- **حلمي( محمد مصطفى، ت1388ه) :**

36. ابن الفارض والحب الإلهي، دار التعارف، ط2، د.ت.

- **حوى (سعيد، ت1409ه) :**

37. المستخلص في تزكية الأنفس، دار السلام، القاهرة، دط، دت.

38. تربيتنا الروحية، مكتبة رحاب، الجزائر، دط، دت.

39. جولات في الفقهين الكبير والأكبر وأصولهما، دار الشهاب، باتنة، دط، دت,

40. مذكرات في منازل الصديقين والربانيين من خلال النصوص وحكم ابن عطاء الله السكندري، دار السلام،القاهرة، ط4، 1999.

- **بن خلدون (عبد الرحمان، ت808ه) :**

41. المقدمة، موقم للنشر،دط، 1991.

- **الراجحي (عبد العزيز بن عبد الله):**

42. شرح العبودية لشيخ الإسلام ابن تيمية, دار ابن حزم, بيروت, ط1، 2000.

- **زروق (أبو العباس أحمد بن أحمد بن محمد، ت 899ه) :**

43. قواعد التصوف، مكتبة الكليات الأزهرية، مصر، ط2، 1972.

- **السايح (أحمد عبد الرحيم)** :

44. عائشة يوسف المناعي، دراسات في التصوف والأخلاق، دار الثقافة، الدوحة، ط1، 1991.

- **السكندري (أحمد بن عطاء الله، ت709ه)** :

45. التنوير في إسقاط التدبير، المكتبة التوقيفية، دط، دت,

- **السلمي (عبد الرحمن، ت412ه)** :

46. أصول الملامتية وغلطات الصوفية، مطبعة الرشاد، مصر، دط، 1985.

- **السهروردي (عبد القاهر بن عبد الله، ت632ه)** :

47. عوارف المعارف, دار الكتاب العربي, بيروت, ط2، 1983.

- **الشطنوفي (علي بن يوسف، ت713ه)** :

48. بهجة الأسرار ومعدن الأنوار، دار الكتب الإسلامية، أديس بابا، دط، دت.

- **الشعراني (عبد الوهاب،ت973ه)** :

49. الأنوار القدسية في بيان آداب العبودية.

50. الطبقات الكبرى المسماة بلواقح الأنوار في طبقات الأنوار مكتبة عبد الحميد أحمد حنفي، مصر، دط، دت.

- **الشيخ( يونس) و السمرائي (إبراهيم )**:

51. الشيخ عبد القادر الكيلاني حياته آثاره، مطبعة الأمة، بغداد، ط2، دت.

- **الصلابي (علي محمد)** :

52. العالم الكبير والمربي الشهير عبد القادر الجيلاني، مؤسسة إقرأ، القاهرة، ط1، 2007.

- **عبد الرحمان (طه)** :

53. العمل الديني وتجديد العقل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط3، 2000.

- **عبد الرحيم( محمد ):**

54. العارف بالله عبد القادر الجلاني، دار الفكر، بيروت، ط1، 1996.

- **عبد السلام( عبد الجليل) :**

55. السفينة القادرية للشيخ عبد القادر الجيلاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2002.

- **العسقلاني (محمد ابن حجر،ت852 ه) :**

56. غبطة الناظر في ترجمة الشيخ عبد القادر الجيلاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2002.

- **عطا (عبد القادر أحمد) :**

57. التصوف الإسلامي بين الأصالة والإقتباس في عصر النابلسي، دار الجيل، بيروت، دط، دت.

- **بن علوان (أحمد) :**

58. التوحيد الأعظم المبلغ من لا يعلم إلى رتبة من يعلم، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط1، 1990.

- **بن العماد الحنبلي (أبو الفلاح عبد الحي، ت1089 ه):**

59. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الكتب العلمية، بيروت، دط، دت.

- **العيني (محمد علي ):**

60. عبد القادر الجيلاني، شيخ كبير من صلحاء الإسلام، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، 1993.

- **الغزالي (أبو حامد، ت505ه):**

61. إحياء علوم الدين، دار القتيبة، بيروت، ط1، 1992.

62. أيها الولد المحب، مؤسسة الكتب الثقافية، ط1، 1990.

**63.** كتاب الأربعين في أصول الدين، دا الجيل، بيروت، دط، 1988.

- **الغزالي( محمد، ت 1416ه):**

64. الجانب العاطفي من الإسلام، دار الشهاب، باتنة، دط، دت.

65. جدد حياتك دار المعرفة، الجزائر، دط، 2000.

66. خلق المسلم، دار المعرفة، الجزائر، دط، دت.

67. ركائز الإيمان بين العقل والقلب، دار الشروق، القاهرة، ط2، 2002.

68. فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء، دار الشهاب، باتنة، دط، دت.

- **أبو فارس (محمد عبد القادر) :**

69. تزكية النفس، دار الفرقان، الأردن، ط1، 2000.

- **القادري (اسماعيل بن السيد محمد سعيد، ت709ه) :**

70. الفيوضات الربانيةفي المآثر والأوراد القادرية، مطابع الزهراء للإعلام العربي، مصر دط، دت.

- **القرضاوي( يوسف) :**

71. في الطريق إلى الله، التوبة إلى الله، مؤسسة الرسالة، ط1، 2001.

- **القشيري (أبو القاسم عبد الكريم، ت465 ):**

72. الرسالة القشيرية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1998.

- **قطب(سيد، ت 1966م):**

73. في ظلال القرآن، دار الشروق، ط10، 1982.

- **كامل (عمر عبد الله ):**

74. التصوف بين الإفراط والتفريط، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 2001.

- **الكلابذي (أبو بكر محمد، ت380ه):**

75. التعرف لمذهب أهل التصوف، مكتبة الأزهرية القاهرة، ط2، 1980.

- **كيفيتش (ميشيل شود):**

76. الولاية، المجلس الأعلى للثقافة، دط، 2000

- **ماضي (جمال) :**

77. فقه السالكين، دار التوزيع والنشر الإسلامي، القاهرة، ط1، 2006.

- **المحاسبي( الجارث، ت243ه) :**

78. الرعابة لحقوق الله، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 2004.

79. المسائل في الزهد، دار الشهاب، باتنة، دط، دت

- **محمود (عبد الحليم، ت1398ه) :**

80. قضية التصوف المدرسة الشاذلية، دار المعارف، ط2، دت.

- **المصلح (حامد بن محمد بن حامد) :**

81. المعاصي وآثارها على الفرد والمجتمع، مكتبة الضياء، ط3، 1992.

- **مفتاح( عبد الباقي):**

82. أضواء على الشيخ عبد القادر الجيلاني وانتشار طريقته، دارالهدى، الجزائر، ط1، 2008.

- **الملقي (هيام):**

83. التجارب الروحية بين التأصيل الإسلامي والإغتراب الثقافي تجديد الصلة بالله، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط1، 2001.

- **المناعي (عائشة يوسف) :**

84. أبو حفص عمر السهروردي حياته وتصوفه، دار الثقافة، الدوحة، ط1، 1991،1992.

- **الندوي( أبو الحسن علي،ت1420ه):**

85. رجال الفكر والدعوة في الإسلام، دار القلم، دمشق، ط1، 2002.

- **نصيب المحاميد (أحمد)** :

86. الحب بين العبد والرب، دار الفكر، دمشق، ط1991،3.

- **الهجويري (كشف المحجوب،ت 470ه)**:

87. دار النهظة العربية, بيروت, دط, 1980.

- **الهلالي (مجدي)**:

88. الطريق إلى الربانية منهجا وسلوكا، دار التوزيع والنشر الإسلامي، القاهرة، ط1، 2003.

- **اليماني (يحي بن حمزة الدمار)**:

89. كتاب تصفية القلوب من أدران الأوزار والذنوب، مؤسسة الكتاب الثقافية، بيروت، ط2، م1993.

**الرسائل الجامعية:**

90. **فرحات (عبد الوهاب)** ، أبو الحسن الشاذلي، حياته ومدرسته في التصوف، رسالة ماجستير، جامعة الأمير عبد القادر، كلية أصول الدين والشريعة والحضارة الإسلامية، تحت إشراف بشير بو جنانة، قسنطينة، 1995م.

## فهرس الموضوعات

مقدمة..... أ

**الفصل التمهيدي: عصر الشيخ عبد القادر الجيلاني وحياته**

**المبحث الأول:** عصر الشيخ عبد القادر الجيلاني..... 2

المطلب الأول: الجانب السياسي..... 2

المطلب الثاني: الجانب الثقافي..... 3

المطلب الثالث: الجانب الديني ..... 3

**المبحث الثاني:** حياة الشيخ عبد القادر الجيلاني..... 5

المطلب الأول: نسبه ومولده ونشأته وأسرته..... 5

المطلب الثاني:رحلاته ومشايخه وتلاميذه ومكانته العلمية..... 7

المطلب الثالث: أخلاقه وصفته وطريقته ومناقبه..... 11

المطلب الرابع: وفاته ومؤلفاته..... 16

**الفصل الأول: آليات التخلق عند الشيخ الجيلاني**

**تمهيد**..... 19

**المبحث الأول:** المعرفة عند الجيلاني ..... 20

المطلب الأول: مفهوم المعرفة ..... 20

الفرع الأول: لغة..... 20

الفرع الثاني: اصطلاحا..... 20

الفرع الثالث: مفهوم المعرفة عند الجيلاني..... 22

المطلب الثاني: منهج تحصيل المعرفة..... 23

الفرع الأول: عند الصوفية..... 23

الفرع الثاني: عند الجيلاني ..... 26
المطلب الثالث: دور العقل في تحصيل المعرفة..... 27
الفرع الأول: عند الصوفية ..... 27
الفرع الثاني: عند الجيلاني..... 30
**المبحث الثاني: منهج الجيلاني في التخلق**..... 33
المطلب الأول: مرحلة العلم..... 33
الفرع الأول: مفهوم العلم..... 33
أ- المعنى اللغوي للعلم..... 33
ب-المعنى الاصطلاحي ..... 33
ج-مفهوم العلم عند الشيخ الجيلاني..... 35
الفرع الثاني: قيمة العلم عند الشيخ الجيلاني..... 35
الفرع الثالث: مردودية العلم..... 39
أ- التوبة..... 39
1-مفهوم التوبة..... 39
2-المعنى اللغوي للتوبة..... 39
ب-المعنى الاصطلاحي للتوبة..... 40
مفهوم التوبة عند عبد القادر الجيلاني..... 41
ب-الإرادة والهمة..... 45
1-مفهوم الإرادة..... 45
لغة..... 45
اصطلاحا..... 45

مفهوم الإرادة عند الشيخ الجيلاني..... 47
علاقة الإرادة بالمعرفة..... 48
2-مفهوم الهمة..... 49
لغة..... 49
اصطلاحا..... 49
صلة الهمة بالإرادة..... 50
المطلب الثاني: مرحلة العمل..... 51
أ- العمل عند الشيخ الجيلاني ..... 51
ب- مفهوم المجاهدة عند الشيخ الجيلاني..... 54
أسس المجاهدة عند الشيخ الجيلاني..... 55
موقف الجيلاني من النفس..... 55
أولا: تخلية القلب من الخلق..... 59
ثانيا: تخلية القلب من الدنيا..... 60
تخلية القلب من الآخرة..... 61
تأصيل فكرة الزهد في الآخرة..... 62
1-ركن الشيخ..... 64
أهلية المشيخة ..... 64
ضرورة الشيخ..... 67
وضعية المشيخة في عصرنا..... 71
**2**-ركن الذكر..... 72
الذكر عند الصوفية..... 72

الذكرعند الشيخ الجيلاني..... 73
3-ركن الفكر..... 78
4-ركن الخلوة..... 81

**الفصل الثاني: مرحلة التحقق عند الشيخ الجيلاني**

تمهيد..... 85
**المبحث الأول:الفناء**..... 86
المطلب الأول: مفهوم الفناء..... 86
الفرع الأول: لغة..... 86
الفرع الثاني: اصطلاحا..... 86
أ-عند الصوفية..... 86
ب-عند الجيلاني..... 88
المطلب الثاني:مظاهر الفناء..... 93
الفرع الأول: المحبة..... 93
مفهوم المحبة ..... 93
لغة..... 93
اصطلاحا..... 94
المحبة عند الشيخ الجيلاني..... 95
أنواع الصوفية في المحبة..... 97
أ-المحبوبين..... 97
ب-المحبين..... 98
مقتضيات المحبة..... 100

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفرع الثاني: العبودية..... 102
مفهوم العبودية:-لغة..... 102
-اصطلاحا..... 102
حقيقة العبودية عند الشيخ الجيلاني..... 103
مقتضيات التحقق بالعبودية..... 104
أ-الحرية..... 104
مفهوم الحرية..... 104
لغة..... 104
اصطلاحا..... 104
1-التبعية الشيئية..... 106
2-التبعية العملية..... 107
أ-التحرر من طلب الانتفاع بالعمل..... 107
ب-إسناد العمل إلى الذات..... 108
ج-التحرر من تعظيم العمل..... 111
**ب-**وصف الافتقار..... 112
**ج-**وصف الاضطرار..... 113
**المبحث الثاني: البقاء**..... 115
المطلب الأول: مفهوم البقاء..... 115
الفرع الأول:البقاء لغة..... 115
الفرع الثاني: البقاء اصطلاحا..... 115
أ-عند الصوفية..... 115

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ب-عند الشيخ الجيلاني..... 118
المطلب الثاني:مظاهر البقاء..... 120
الفرع الأول: الولاية..... 120
-مفهوم الولاية..... 120
الولاية لغة..... 120
الولاية اصطلاحا..... 121
أ-عند الصوفية..... 121
ب-عند الشيخ الجيلانيي..... 123
1-علامات الولاية عند الشيخ الجيلاني..... 123
2-كيفية التحقق بالولاية عند الشيخ الجيلاني..... 125
الفرع الثاني: التمكين..... 127
-مفهوم التمكين ..... 127
التمكين لغة..... 127
التمكين اصطلاحا..... 127
أ-عند الصوفية..... 127
ب-عند الشيخ الجيلاني..... 129
الخاتمة..... 131

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

## الفهارس

فهرس الآيات القرآنية..... 135
فهرس الأحاديث النبوية..... 139
قائمة المصادر والمراجع..... 140
فهرس الموضوعات..... 149

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية